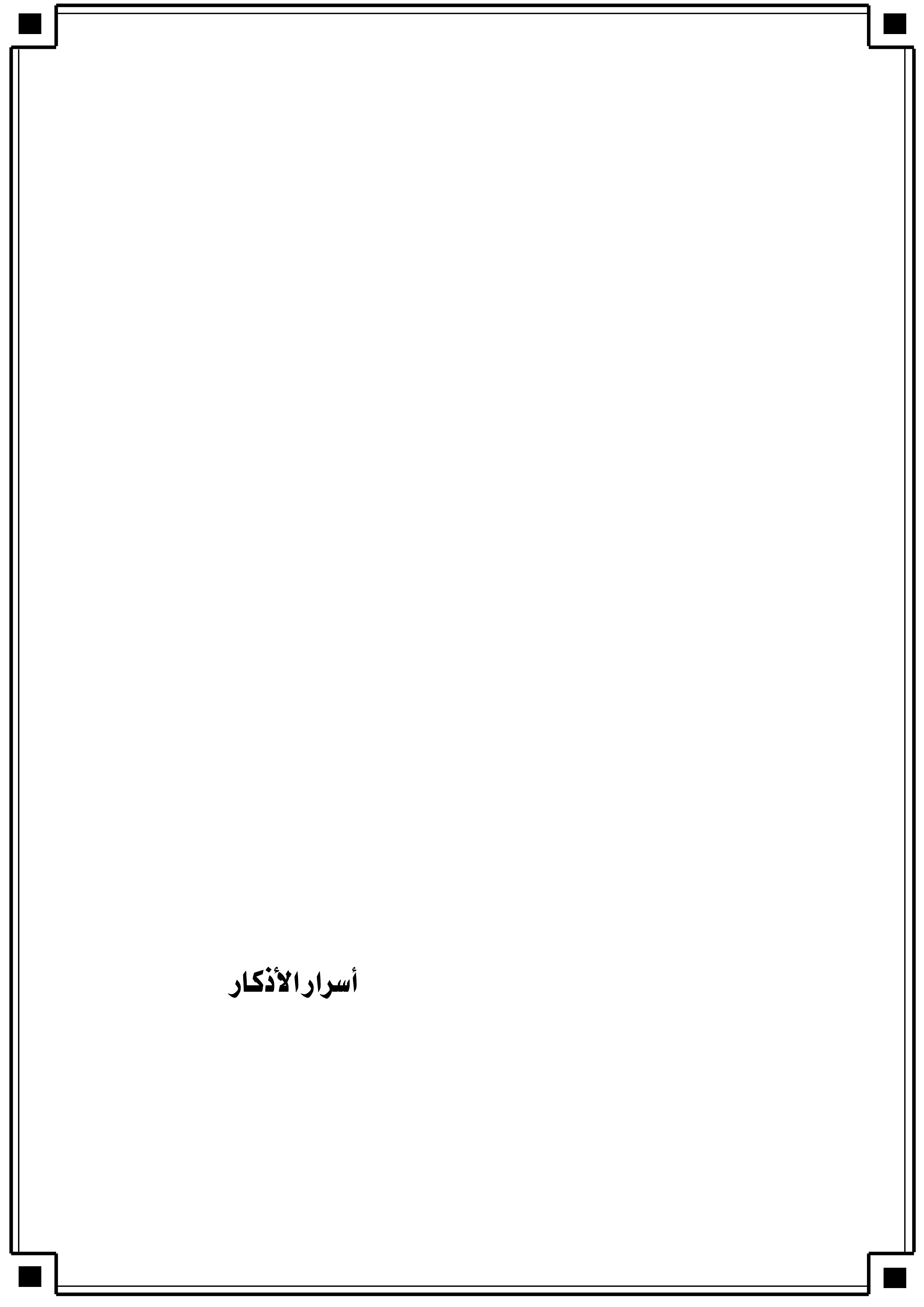


أسرار الأذكار

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٧/٥/١٣٧٦)

٢١٣ ،٣
جرار، مأمون فريز
أسرار الأذكار/ مأمون فريز جرار — عمان:
دار المأمون، ٢٠٠٧
(١٤٤) ص.
ر. أ. : (١٣٧٦/ ٥/ ٢٠٠٧).
الواصفات: الإيمان// الأذكار// الوعظ والإرشاد/ الثقافة الإسلامية // الإسلام/

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-...com

أسرار الأذكار

الدكتور

مأمون فريز جرار

دار المأمون للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله الطيبين الطاهرين، ورضي الله عن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد فإننا نجد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم ﷺ، حديثاً طويلاً عن الذكر والدعاء، وطلبا من المسلم أن يذكر ربه، سبحانه، وأن يدعوه.

فما الدعاء؟ وما الذكر؟ وما فائدة كل منهما؟

وكيف ينبغي أن يكون حالنا في الذكر والدعاء؟

وهل نمر بالأذكار أو نُمرُّها على ألسنتنا، بقلوب ساهية لاهية تردد القول من غير تدبر؟

أفلا ينبغي أن نتدبر ونتفكر لنعلم ما نقول، وما الذي نسأله ربنا عز وجل، وما الذي نستعيذ بالله منه؟

في هذا الكتاب سنمضي في رحلة مع الأذكار والأدعية، نسأل الله تبارك وتعالى أن يعطينا خيرها، وأن يثيبنا عليها، وينير بها قلوبنا ودروبنا، لنكون على بينة من أمرنا في جانب مهم من جوانب ديننا، ومنشط من مناشط حياتنا.

وقد لا يكون فيما جرى به قلمي جديد في العلم أو الفهم لدى بعض من يطالعه، لكن فيه مفيداً من القول، إن لم يكن مما جرى به قلمي فمما أنقله من كلام الله سبحانه، ومن حديث رسوله عليه وآله الصلاة والسلام، الذي يبين الأقوال المطلوبة في أحوال، والأذكار التي تجري بها الألسنة، فألفتها ألفة جعلتها تفقد إيحاءاتها وإشعاعها، لكثرة تكرارها، وذلك شأن الإنسان: يبهجه الأمر أول حدوثه،

والحدث أول وقوعه

والشيء عند امتلاكه

ثم تذهب الجدَّة

وتتلاشى البهجة؛

وذلك ما لا ينبغي أن يكون في علاقتنا بالله تعالى، في أذكارنا ودعواتنا، فالأذكار والأدعية دائمة الإشعاع،

لا يذهب بهاؤها،

ولا تخلق على كثرة تكرارها،

ولا تخفت أنوارها،

وإنما العيب فينا نحن؛

في القلوب التي تصدأ بالغفلة والمعصية، وبالحواس التي تقف على ظواهر ما تدرك؛ مما ترى وتسمع وتلمس وتشم وتتذوق.

إنها بحاجة إلى جلاء وصقل:

والصقل والجلاء يكونان بالتفكر والتدبر،

والعودة إلى الفطرة السليمة التي ترى الأشياء على طبيعتها.

إننا نصاب بضعف الإدراك في حواسنا؛ فنستعين بالنظارات والسّماعات لتحسن رؤية الأشياء وسماعها؛ وكذلك حالنا مع الأدعية والأذكار وآيات الله من حولنا

إننا بحاجة إلى أن نستعيد الإدراك التام

والتعامل السليم

حتى تجري أنوارها في عروقنا وقلوبنا، وتتغلغل في حياتنا.

فكم من لسان جرى مرات بهذا الذكر، الرائع:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

ثم اتخذ صاحبه مع الله آلهة أخرى من:

هوى نفس

ودنيا مطاعة

وشحّ متبَّع

وخاف ممن لا ينبغي أن يخاف منه من عباد الله الذين هم أمثاله

خاضعون لعزة الله ولعظيم سلطانه

وتوكّل على غير الله، ورجا غير الله، وتَوسَّل لتحقيق أموره بما لا يرضي الله تعالى.

سنمضي في رحلة مع الأذكار والأدعية

فيها نور وبرهان

وتأمل وتدبر

وسياحة مع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

مع ما يفتح الله به من معنى هو مِنّةٌ منه وفضل.

فلنمض في هذه الرحلة المباركة نستكشف أسرار الأدعية والأذكار

عسى الله تعالى، أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه

ويجعلنا من الذاكرين الشاكرين

فهو القائل سبحانه:

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢]، وعسى أن يجيب دعاءنا، فقد وعد الداعين بالإجابة في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾[غافر ٦٠].

إنها رحلة مع الله تعالى ذكراً ودعاء وتفكراً وتدبراً

نرجو بها غفران الذنوب

وقبول الأعمال

ورفع الدرجات.

رحلة نمحو بها الغفلة

ونرجو بها إقالة العثرة والزلّة.

فما أسعدها من رحلة إن كانت عاقبتها الإجابة

وكانت ثمرتها الإنابة

وكان مآلها مقعد صدق عند مليك مقتدر.

مأمون فريز جرار

من فضائل الذكر والدعاء

ذكر الله تعالى أشرف الأقوال والأعمال

لأنه إن تحقق كما ينبغي أن يكون، وكما يحب الله تعالى، حقق للذاكر:

العيش في أنوار من أسماء الله تعالى

وتجليات آياته في النفس والكون

في الغيب والشهادة

وفي الدنيا والآخرة.

وكثيرة هي الآيات التي حضت المؤمن على ذكر ربه.

وما أعظمها من آية تدفع المؤمن إلى ذكر ربه لينال شرفاً عالياً من ذكر الله تعالى له:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

وها هو النداء الإلهي الحبيب ينادي المؤمنين طالباً منهم أن يكثروا من ذكر الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب ٤١ -٤٢].

وها هي الأحاديث النبوية الشريفة تدعو المسلم إلى ذكر ربه وتبين له فضل هذا الذكر:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **" ألا أنبئكم بخير أعمالكم**
وأزكاها عند مليككم
وأرفعها في درجاتكم
وخير لكم من إنفاق الذهب والورق
وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟
قالوا: بلى يا رسول الله،
قال: ذكر الله تعالى" (صحيح ابن ماجة ٣٧٩، سنن الترمذي ٣٣٧٧).

وما أجمله من حديث قدسي يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن الله تعالى: **"يقول الله عز وجل:**
أنا عند ظن عبدي لي
وأنا معه حين يذكرني
إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي
وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم.
وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعا
وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعا
وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" (مسلم ٢٦٧٥).

وها هو حديث آخر يبين فضل مجالس الذكر فعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: **"ما من قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده..."**

(مسلم، ٢٧٠٠، ابن ماجه ٣٧٩١، الترمذي ٣٣٧٨).

هذا عن الذكر، وأما الدعاء:

فإنه باب من أبواب الذكر،

لأن من يدعو يتذكر ربه

ويعلم أنه ملجأ له في الشدائد

ومعاذ له في البلاء

يعلم أن الخير بيده فيطلبه

وأنه لا يصرف السوء إلا هو فيستعيذ به.

وها هو الله سبحانه وتعالى يطلب من عباده أن يدعوه ويعدهم بالإجابة:

قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠].

ومن الأحاديث الشريفة التي بينت فضل الدعاء قوله ﷺ: **"الدعاء هو العبادة"** (صحيح الجامع / ٣٤٠٧).

نسأل الله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره، ويلهمنا الدعاء المستجاب وأن يتقبل دعاءنا.

الذكر دلالة وآثاراً

قال الراغب الأصفهاني في مفردات ألفاظ القرآن:

"الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره. وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول. ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان. وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عَنْ نسيان بل عن إدامة الحفظ". (ص ٣٢٨).

ومرادنا من الحديث عن الذكر: ذكر الله سبحانه وتعالى. وهو ذكر:

قد يأتي بعد غفلة قلب، وزلة شيطان،

وقد يكون ذكراً على ذكر، فيكون نوراً على نور، وزيادة هدى،

الذكر: استحضار لله تعالى في قلب المؤمن بأسمائه الحسنى.

والذكر: رؤية لنعم الله تعالى وشكره عليها.

والذكر محوٌ للأنا وللغير، وردّ الأمر إلى من بيده الأمر:

فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والذكر احتماء بركن شديد يأوي إليه العبد في لحظات الضعف والخوف.

الذكر تسبيح وتقديس وحمد وتهليل وتكبير، يرقى به الإنسان ليستشرف أفق الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم ويقدسون له في الليل والنهار لا يَفْتُرون.

والذكر يكون بالقلب الذي لا يغفل عن ربه:

بالمدد الدائم الوارد إليه من نور الطاعة

ونور الفكر

ولمّة الملك بالإيعاد بالخير

والأمر بالمعروف

فيزيده الذكر نوراً على نور.

والذكر يكون بالحواس التي تدرك الآيات ولا تمرّ عليها معرضة؛ سمعاً وبصراً ولمساً وشمّاً وذوقاً.

الذكر حال وحاجة واستجابة.

أما الاستجابة فللنداء الرباني لعباده:

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب ٤١ -٤٢]،

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا ﴾[آل عمران: ٤١].

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾ [المزمل: ٨].

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾ [الإنسان: ٢٥].

ويكون ذكر الله حاجة للإنسان يجدها في لحظات الضعف والخوف. فإذا لقي عدواً أو خاف منه كان ذكر الله تعالى وسيلة من وسائل الحماية والانتصار على العدو:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥].

وإذا أذنب ذنباً

وخاف أن تحيط به خطيئته

وأحسّ بثقل المعصية

كان الذكر ملجأه ومعاذه

يغتسل فيه من الأوزار

ويرجو رحمة الرب الغفار:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وبالذكر يعود التوازن إلى الإنسان إن اختل هذا التوازن لعارض نفسي أو جسدي:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وذكر الله تعالى حال دائم للمؤمنين لا عارض يلوح ثم يتلاشى

فهم قد وجهوا وجوههم للذي فطر السماوات والأرض

وأسلموا وجوههم له

وهم أولو الألباب:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهم: ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ ﴾ [النور: ٣٧].

إنهم في ذكر منذ أن تعود إليهم حواسهم بعد النوم

فيذكرون الله تعالى بأذكار الصحو

ثم أذكار الوضوء

ثم أذكار الصلاة

وهم إن خرجوا من البيت ذكروا

وإن عادوا إلى البيت ذكروا

وإن أكلوا أو شربوا ذكروا

وإن باعوا أو اشتروا ذكروا

إنهم في ذكر دائم باللسان والجنان، والعين والسمع، وسائر الحواس.

الذكر حياة للقلب، وراحة للبدن

ومعراج إلى الحضرة الربانية

تجري ذكر العبد عند ربه

وتتنزل عليه بذلك الرحمات

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

من فوائد الذكر

الذكر باب رحمة وخير وهدى للإنسان

وللإنسان عدو مبين لا يغفل عنه لحظة

يتابعه في صحوه ومنامه

وفي حله وترحاله

وفي طاعته ومعصيته

عدو خفي، لكن آثار كيده ومكره ظاهرة في النفس والحياة

في كفر بالله وشرك به

وفسق وفجور

هي ثمرات الوحي الشيطاني إلى أوليائه الذين تولوه وأعرضوا عن ربهم، وصاروا للشيطان حزباً.

ذكر الله: حصن حصين من الشيطان وكيده وأوليائه.

الشيطان: يسعى بالإنسان إلى ظلمات الغفلة

ويريد أن يحجب عنه أنوار الطاعة

ليظل في عماية من أمره،

وتسهل عليه قيادته.

لكن المؤمن: يقظ حذر.

سمع من كلام ربه ما كشف له عن كيد الشيطان فأخذ حذره:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١].

يريد الشيطان أن يصد المؤمن عن ذكر الله

فيستكثر المؤمن من الذكر

ويديم تحريك لسانه به

واستحضاره في قلبه

تحصّناً من الشيطان، واستمساكاً بالعروة الوثقى.

وسمع المؤمن قول ربه في وصف حزب الشيطان:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة ١٩].

وهل يرضى المؤمن أن يكون من حزب الشيطان؟

وهل يقبل بالخسارة ثمرة للحياة ونهاية لها؟

وهل يسمح للشيطان أن يستحوذ عليه وينسيه ذكر ربه؟

أيقبل أن يسوقه الشيطان سَوْق البعير؟

والعصمة من استحواذ الشيطان وحزبه والخسارة: تكون بدوام بذكر الله، والسير في الطريق إلى الله:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم: ٤٢].

والغفلة عن ذكر الله تجعل الغافل قريناً للشياطين:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

والعشا: ظلمة تعترض في العين، وعشي عن الأمر مثل: عمي عنه، وهو ليس أعمى البصر بل أعمى البصيرة.

فهو مبصر للدنيا وأهوائها وشهواتها ومتابع لأهلها، أعمى عن ربه وعن طاعته وعن الآخرة ومآله إليها.

والإعراض عن ذكر الله

والإيغال في الغفلة

والغرق في الشهوات: يقود صاحبه إلى حياة الضنك.

وهي حياة الضيق:

ضيق النفس وإن كان في بحبوحة من الدنيا وفسحة من نعيمها.

كما يسبب له العمى يوم القيامة

ويقوده إلى النار مصيراً:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٤ – ١٢٦].

﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن: ١٧].

والعذاب الصُّعد: هو العذاب الشاق.

وذكر الله مفتاح كل أمر.

ومفتاح كل خير.

وما لم يذكر اسم الله عليه فلا خير فيه ولا بركة

ولا أمن ولا حماية

ولا نور ولا هداية.

الذكر حياة للقلب،

ومن غفل عن ذكر الله فهو ميت، وإن عُدّ في الأحياء، ألم يقُل الرسول ﷺ:

"مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت" (رواه البخاري).

"مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت" (متفق عليه).

والذكر وإن كان كلاماً يجري على اللسان

ومعاني وصوراً يتمثلها الجنان

فإنه أمر يحتاج إلى عونٍ رباني ليستمر الإنسان فيه وليحافظ عليه.

وما يطلب فيه العون الدائم من الله تعالى أمر كبير:

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وفي الوصية النبوية الحميمة لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، بيان ذلك:

فقد أخذ بيده وقال:

"يا معاذ والله إني لأحبُّك.

ثم قال: أوصيك يامعاذ، لا تدعنَّ دبر كل صلاة: تقول: اللهم أعني على ذكر وشكرك وحسن عبادتك"

(أبو داود والنسائي بسند صحيح، الأذكار للنووي باب الأذكار بعد الصلاة)

إن من صفات المؤمنين ما بيّنه قوله تعالى:

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفي سنة النبي ﷺ وأحواله وأقواله ما يتجلّى فيه هذا الذكر الدائم الذي يقتدي فيه المسلم بحبيبه رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، لينال أنوار الذكر وبركته وهداه،

وينال درجة المتابعة التي ترتقي به إلى درجة المحبة وترفعه إلى جنات النعيم.

الذكر والبصيرة

هل الذكر كلمات يجري بها اللسان ثم تتلاشى؟

هل الأذكار وظيفة أو واجب أو وِردٌ نردده في الصباح والمساء، وفي سائر الأحوال ثم ينتهي كل شيء؟

هل نذكر اتباعاً للنبي ﷺ وكفى؟!

اتباع النبي ﷺ سبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، ومن لوازم هذا الاتباع البصيرة:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ومن البصيرة أن نكون مدركين لما نفعل وما نقول.

مدركين لماذا نقول، وما الذي نجنيه مما نقول؟

وذلك أمر بينه النبي ﷺ في الأذكار التي شرعها لنا

فما قال قولاً إلا:

وبين لنا أثره أو ثمرته عاجلاً وآجلاً. وأضرب أمثلة لذلك وأدع التفصيل لمواضعه؛ وذلك لبيان البصيرة المطلوبة في الذكر وإدراك آثاره، وهذه جملة أحاديث تتضمّن أذكاراً وتبين ثمراتها:

"من قال إذا خرج من بيته: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلاّ بالله يقال له: كُفيت ووُقيت، وتنحى عنه الشيطان" (صحيح الجامع رقم ٦٤١٩).

"من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته؛ حلّت له شفاعتي يوم القيامة" (صحيح الجامع رقم ٦٤٢٣).

" من قال حين يمسي: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم (ثلاث مرات) لم يُصبه فُجأةً بلاءٌ حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح (ثلاث مرات لم يصبه فجأةً بلاءٌ حتى يمسي" (صحيح الجامع رقم ٦٤٢٦).

"من قال: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً؛ وجبت له الجنة" (صحيح الجامع رقم ٦٤٢٩).

"من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حُطّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر" (صحيح الجامع رقم ٦٤٣١).

ولن أمضي في سرد الأذكار وثمراتها ولكنني أوردت بعضاً منها مّما له ثمرات في الدنيا: فالذكر عند الخروج من البيت، ثمرته: الكفاية والوقاية من كيد الشيطان.

ومثل ذلك دفع البلاء بقول:

بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء.

وفي الأذكار الأخرى بيان لثمرات أخروية:

وجوب الجنة، ونيل شفاعة النبي ﷺ وغير ذلك.

فنحن في الذكر لسنا أمام قول فحسب بل هو: من أجلِّ الأقوال،

لأن شرف الكلام مرتبط بمضمونه

وأي كلام أعلى مما يذكر اسم الله تعالى فيه؟

ولذلك كان أحب الكلام إلى الله تعالى ما فيه ذكره، وجاء في ذلك أحاديث منها:

"أحب الكلام إلى الله أن يقول العبد: سبحان الله وبحمده" (صحيح الجامع رقم ١٧٤).

"أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلى الله والله أكبر ولا يضرك بأيّهن بدأت" (صحيح الجامع رقم ١٧٣).

ومَنْ أكثر من الذكر الذي يحبه الله تعالى: نال حبه سبحانه، وأجاب الله تعالى مراده.

وليس الذكر راحة للقلب والنفس فحسب

وليست ثمراته وقاية وهداية وشفاعة وجنة فحسب

بل للذكر ثمرات دنيوية بدنية: لا يلتفت إليها كثير من الناس

ولا يتنبهون إلى آثارها

ولعل من أوضح ما يدل عليها ما اشتهر بتسبيحات فاطمة عليها السلام.

فقد أحست فاطمة عليها السلام بالتعب من عمل البيت لاسيما الرّحى التي كانت تطحن بها

فبلغها أن رسول الله ﷺ قد جاءه سبي

فأتته تسأله خادماً فلم تجده

فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فلمّا جاء النبي ﷺ ذكرت عائشة له حاجة فاطمة

فجاء إلى بيتها وقد أخذت مضجعها، فقال لها ولعلي رضي الله عنهما:

"ألا أدلكما على خير مما سألتماه؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعاً وثلاثين، واحمد الله ثلاثاً وثلاثين وسبحا ثلاثاً وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتما". (متفق عليه / اللؤلؤ والمرجان رقم ١٧٣٩).

ولا يخفى ما يوحي به الحديث من أثر التسبيح في إمداد الجسم بالقوة التي قد تغني عن الاستعانة بخادم[١].

(١) ولا يعني هذا أن يتعسف بعض الأزواج إن احتاجت زوجته إلى خادمة ويتخذ من فاطمة عليها السلام حجة، فقد اتخذ المسلمون في عصور الخير وما بعدها الخدم ولم يحتجّ أحد بهذا الحديث تهرباً من إعانة الزوجة بخادمة.

أصول الذكر

أصول الذكر ستة:

ذكر اسم الله تعالى، بقول: بسم الله

وتسبيح الله تعالى، بقول: سبحان الله

وحمد لله تعالى، بقول: الحمد لله.

والتهليل، بقول: لا إله إلا الله.

والتكبير، بقول: الله أكبر.

والحوقلة، بقول: لا حول ولا قوة إلى بالله.

فهذه الأصول تجمع الخير كله، وتجعل قائلها: من الذاكرين لله تعالى، ذكراً تتجلى فيه الأسماء الحسنى: في مشاهد تراها العين، وتلوح للقلب.

ولذكر كل أصل من هذه الأصول فضل وأثر في الدنيا والآخرة، ولصوره المختلفة دلالات ترتبط بالإنسان

وما ينبغي أن يؤمن به، وتتعلق بأحواله المختلفة.

ولعل مما يستحق التدبر في الأذكار هو أن النبي ﷺ نص على تكرارها بأعداد محددة.

فبعض الأذكار يقال مرة واحدة.

وبعضها يكرر ثلاث مرات.

وبعضها يكرر عشراً.

وبعضها يكرر ثلاثا وثلاثين.

وبعضها يكرر مئة مرة.

فهل العدد مقصود أم أنه من باب التكثير؟

إن التكرار فيما أرى مقصود بحدّه الأدنى، والله أعلم.

وشأن الذكر مع النفس والبدن شأن الغذاء أحياناً

وشأن الدواء أحياناً أخرى.

وسنجد في العرض التفصيلي للأذكار والأدعية:

أن منها ما قدمه النبي ﷺ تقوية للإيمان وزيادة صلة بالله تعالى.

ومنها ما قدمه ليكون علاجاً لأحوال تعرض للإنسان.

فينبغي أن ننتبه إلى العدد.

فإذا كان العدد ثلاثة: فهو الحد الأدنى الذي تعالج به الحالة المقصودة ومن احتاج إلى المزيد فلا تثريب عليه.

شأنه شأن من ترتفع درجة حرارته فيتناول حبة من الدواء الخافض للحرارة، فإن لم تنخفض احتاج إلى تعزيز أثر الحبة الأولى بحبة أخرى.

وأما ما لم يكن مرتبطاً بحال

ولم يكن علاجاً، فهو خير موضوع:

من شاء أن يستزيد منه استزاد خيراً

وازداد نوار وهدى

يجدد بالذكر إيمانه

ويكبت شيطانه

ويرتقي درجات في معراج العبادة والعبودية،

وهذه وصية رسولنا محمد ﷺ، يحثنا فيها على الذكر، يبين منزلة تشهد على ما قلته:

"ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق، الذهب والورق [أي الفضة] وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ ذكر الله" (صحيح الجامع رقم ٢٦٢٩).

وينبغي فهم هذا الحديث فهماً سليماً، هو الفهم النبوي الذي أخذ به الصحابة فليس معنى الحديث الاكتفاء بالذكر والاستغناء عن أبواب الخير الأخرى المذكورة في الحديث:

من إنفاق في سبيل الله تعالى أو جهاد في سبيله

فذلك أمر لم يفعله النبي ﷺ، وهو:

إمام الذاكرين

وقدوة المنفقين

وقائد المجاهدين

وكذلك كان الصحابة: إنفاقاً وجهاداً وذكراً؛ اتباعاً لسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام.

هذا الحديث يفتح باب الخير بالذكر لمن لا يملك المال أو لمن لم يفتح له باب الجهاد في سبيل الله

وهل يستغني المنفق للمال في سبيل الله

أو المجاهد في سبيل الله

عن ذكر ربه حيث كان؟

وشبيه بهذا الحديث في بيان فضل الذكر وكونه باباً لكل خير ومعيناً على كل طاعة، ما قاله صحابي للنبي ﷺ:

"إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأنبئني منها بشيء أتشبث به.

قال: لا يزال لسانك رطباً بذكر الله عز وجل" (الترمذي رقم ٣٣٧٥ وصحيح ابن ماجه رقم ٣٠٦١)

فلا يغني ذكر الله تعالى عن شرائع الإسلام الكثيرة بل يعين عليها

وسترى في الأدعية والأذكار كيف تكون عوناً على كل طاعة وكل خير، لا بديلاً عن أي منها.

معاني التسبيح

التسبيح بألفاظه المختلفة من الأذكار الكثيرة الجريان على اللسان

والتسبيح: باشتقاقاته المتنوعة، كثير الورود في آيات القرآن الكريم

وفيما ورد من الأدعية والأذكار على لسان نبينا محمد ﷺ.

فماذا يعني التسبيح؟

ما الذي ينبغي أن يرد على عقولنا وقلوبنا ونحن نردد ألفاظ التسبيح: المطلق منها والمقيد.

ماذا نفهم عندما نقول أو نسمع:

سبحان الله.

أو: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم

أو: سبحان ربي العظيم

أو: سبحان ربي الأعلى

أو: سبحانك اللهم وبحمدك

أو: سبّوح قدوس

أو: سبحان الملك القدوس؟

لنبدأ بما قاله أهل اللغة. ولنبدأ بالفعل الثلاثي غير المشدّد: سَبَحَ.

قالوا: سبَح في النهر سَبْحاً وسباحة أي: عامَ.

والسباحة: العَوْمُ في الماء.

ولنتذكر ما في السباحة من حركة واندفاع.

وقيل في تفسير: (والسابحات سبحا):

السفن في البحار والأنهار.

أو: أرواح المؤمنين

أو : النجوم.

والسوابح: الخيل، لسبحها في سيرها، أي: مدّ يدّيْها في الجري.

ولنربط بين صورة السباحة وحركة الخيل وهي في جريها الذي تمتد به أطرافها الأمامية على مداها.

والسَّبْحُ له معانٍ متعددة. وهو من الأضداد، أي الألفاظ التي تعني المعنى وضدّه.

ومن هذه المعاني:

الفراغ، والتصرف في المعاش.

والحفر في الأرض.

والنوم والسكون.

والتقلب والانتشار في الأرض، والإبعاد في السير.

والإكثار من الكلام.

ولا يخفى أن أهل اللغة استقوا هذه المعاني لكلمة السبح من تتبع كلام العرب.

والسُّبْحةُ: الدعاء، وصلاة التطوع، والخرزات المنظومة لعدّ الأذكار.

فإذا انتقلنا إلى الفعل الثلاثي المشدّد الباء: سَبّحَ، وجدنا من معانيه:

قال: سبحان الله.

وسبّح الله أو سبّح له: نزّهه وقدسه.

والتسبيح: التنزيه وقول: سبحان الله، أي: أبرئ الله من السوء براءة، أو تنزيهاً لله من الصاحبة والولد. أو المَرُّ السريعُ في عبادَة الله تعالى.

إن مدار معاني السَّبْح والتسبيح على: التنزيه والحركة والسكون

وهذا ما ينبغي أن يكون في بالنا ونحن نرى مواضع التسبيح وصيغه في الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة.

كما ينبغي أن نتنبه إلى القيد الذي يصاحب التسبيح:

من الإضافة التي تتبعه

أو الإشارة إلى الموقف الذي يقال فيه

وإذا أخذنا الأمور من بداياتها وفق ترتيب منطقي للتسبيح والمسبحين، وجدنا:

أن الملائكة هم أول المسبحين

وأن التسبيح من عملهم الذي لا يفترون عنه.

ولنقف على هذه الآيات الكريمة التي تحدثنا عن الملائكة الكرام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠].

ومما قاله المفسرون في: (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك): ما أورده ابن كثير: قال قتادة: التسبيح أي قول: سبحان الله. والتقديس: الصلاة.

وعن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، يقولون: نصلي لك.

وقال مجاهد: نعظّمك ونكبّرك.

وقال الضحاك: التقديس: التطهير.

وقال محمد بن إسحاق: لا نعصي ولا نأتي شيئاً تكرهه.

وقال ابن جرير: التقديس هو: التعظيم والتطهير. ومنه قولهم: سبوح قدوس. يعني بقولهم: سبوح: تنزيه له، وبقولهم: قدوس: طهارة وتعظيم له.

ونقدس لك: ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس، وما أضاف إليك أهل الكفر بك.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: **"أي الكلام أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده"** (انظر: تفسير ابن كثير ج١ ص ٧٥ طبعة دار المعرفة).

وأضيف إلى ما أورده ابن كثير ما قاله الزمخشري في الكشاف قال: "والتسبيح: تبعيد الله عنه السوء، وكذا تقديسه، من سبح في الأرض والماء، وقدّس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد. وبحمدك: أي نسبح حامدين لك، وملتبسين بحمدك، لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللطف لم نتمكن من عبادتك". (انظر الكشاف / ج١/ ص ١٢٥ – طبعة دار الريان للتراث).

وقد وردت للتسبيح معانٍ أخرى،

منها: أن يقال التسبيح ويقصد به استعظام أمر أو التعجب منه.

نجد ذلك في قول الرسول ﷺ في حديثه عن الدّيْن الذي لا بدّ من الوفاء به، وردّه إلى أصحابه، حتى لو كان المدين شهيداً: **"سبحان الله ماذا أُنزل من التشديد في الدَّيْن؟**

والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قُتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه دينه" (صحيح الجامع رقم ٣٦٠٠).

ولا يخفى أن استفتاح الحديث عن الدّيْن بتسبيح الله يدلُّ على عِظَم هذا الأمر الذي ورد في سياق التشديد في حقوق العباد، التي لا تسقطها الشهادة في سبيل الله.

ومثل ذلك ما نجده في قول الرسول ﷺ:

"سبحان الله! ماذا أُنزل الليلة من الفتن؟ وماذا فُتح من الخزائن. أيقظوا صواحب الحُجَر، فرُبّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة" (صحيح الجامع رقم ٣٥٩٩).

لقد اطلع رسول الله ﷺ على ما أُنزل من الخزائن الربانية من الفتن القادمة، فاستعظمها، وتعجب منها، وجاء التعبير عن ذلك بالتسبيح.

وقد يتضمن التسبيح معنى الاستنكار والنفي إلى جانب التعجب، نجد هذا في الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة **"أنه لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة وهو جُنُب، فانخنس منه (أي اختبأ لكيلا يراه) وذهب واغتسل ثم جاء، فقال: أين كنت يا أبا هريرة؟**

قال: كنت جنباً، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة.

فقال: سبحان الله! إن المسلم لا ينجس".

إن تسبيح النبي ﷺ هنا يتجه إلى إنكار ما ورد من وهم لدى أبي هريرة.

وقد يرد مع الإنكار شيء من التعجب.

ومن الأحاديث التي نجد فيها التسبيح مستخدماً بمعنى الإنكار والتعجب هذا الموقف الحرج الذي وضعت فيه النبي ﷺ إحدى النساء، بسؤالها عن غسل الحيض، ومتابعتها السؤال بصورة مستنكرة لأنها من خصوصيات المرأة التي ينبغي أن تدركها من غير إلحاح في السؤال:

"عن عائشة أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من الحيض، فأمرها كيف تغتسل، قال: خذي فرصة [أي قطعة] من مسك فتطهري بها، قالت: كيف أتطهر؟ قال: تطهري بها!

قالت: كيف؟!

قال: سبحان الله !! تطهري

[قالت عائشة: فاجتذبتها إلي فقلت: تتبعي بها أثر الدم"

(فتح الباري ١/ ٤١٤).

وورد التسبيح مقروناً بالتعجب والفزع في هذا الحديث:

روى أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **"بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أُخلق لهذا!! ولكني إنما خلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله تعجباً – وفزعاً – أبقرة تتكلم؟"** (صحيح مسلم، حديث رقم ٢٣٨٨).

وورد التسبيح بمعنى الإنكار والتعجب في قول الرسول ﷺ: معلقاً على طلب بعض المسلمين منه: **"اجعل لنا ذات أنواط مثلما لهم ذات أنواط"** وهي شجرة كان المشركون يعظمونها ويعلقون بها سلاحهم، فقال النبي ﷺ معقباً على هذا الطلب في تعجب واستنكار وفي استذكار لموقف كان من قوم موسى عليه السلام:

– سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: **"اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة"** والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم

(صحيح الجامع الصغير رقم ٣٦٠١)

التسبيح عمل الملائكة

حدثنا الله تعالى عن ملائكته المكرمين، وبين لنا أعمالهم وأحوالهم، ومن أشرف أعمال الملائكة ذكر الله تعالى وتسبيحه.

ولا يخفى أن للملائكة اطلاعاً على جوانب هذا الكون يجعلهم على معرفة بربهم وعظمته، ورحمته وعذابه، مما يجعلهم يلهجون بالتسبيح والحمد، لا يتخلفون عن ذلك لحظة واحدة.

قال الله سبحانه في وصف حالهم:

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

ونلحظ هنا الاقتصار على ذكر التسبيح دون الحمد والتقديس اللذين وردا في قولهم:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]

وقد نفى الله تعالى عن الملائكة الفتور في التسبيح:

والفتور هو: السكون بعد الحدّة، واللين بعد الشدّة، والضعف بعد القوة. وقد فسر ذلك قوله تعالى في الحديث عن المستكبرين عن عبادته الذين يجهلون قدر ربهم، حيث قال سبحانه مبينا حال الملائكة العارفين بالله:

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ (٣٨) ﴾ [فصلت: ٣٨].

والسآمة: الملالة مما يكثرُ لُبثه؛ فعلاً كان أو انفعالاً.

ويأتي الحديث عن تسبيح الملائكة مع نفي الاستكبار عن العبادة عنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦) ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والتسبيح عمل دائم للملائكة، وفي هذه الآية إشارة إلى السجود. ونحن في صلاتنا لربنا نسبح الله تعالى راكعين وساجدين.

وفي الحديث الذي يرويه أنس عن رسول الله ﷺ:

"أطّت السماء، ويحقّ لها أن تئط. والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلاّ وفيه جبهة مَلَك ساجد يسبح الله بحمده" (صحيح الجامع الصغير رقم ١٠٢٠).

وتحدثنا آية أخرى عن تسبيح الملائكة بحمد ربهم واستغفارهم لمن في الأرض:

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الشورى: ٥].

ومثلها قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧-٩].

إن تسبيح الملائكة الكرام مصحوب بعلم علمهم الله تعالى إياه.

فحملة العرش ومن حوله مطلعون على أحوال الأرض ومن فيها،

فهم يستغفرون لهم، ثم يخصّون المؤمنين بمزيد استغفار لهم ولذرياتهم.

إنه تسبيح مقرون بالدعاء الطيب من الملائكة المسبحين الطيبين.

ومن الآيات التي تبين التسبيح الدائم من الملائكة حتى صار صفة لهم قوله تعالى حكاية عنهم:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ [الصافات ١٦٤ -١٦٦].

وتربط آية كريمة تسبيح الملائكة بالخوف من الله تعالى، لإدراكهم عظمته وجلاله، وما عنده من شديد العذاب:

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد: ١١٣]

والتسبيح عمل دائب دائم للملائكة بدءاً وختاماً:

عندما خلق الله تعالى آدم،

وعندما ما تسير زمر الناس إلى مصائرهم:

زمر الكافرين إلى النار

وزمر المؤمنين إلى رحمة الله ورضوانه في الجنة.

فبعد أن تحدثنا آيات سورة الزمر عن ذلك، يأتي في ختامها هذا المشهد الرائع الذي يعجز العقل والقلب والخيال عن تصوره لكنها تحاول ذلك استشرافاً لجلاله وجماله، ولتشارك الملائكة في تسبيحها:

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر: ٧٤ -٧٥].

التسبيح لغة الكون

ليس الملائكة وحدهم هم من يسبحون الله تعالى في هذا الوجود، بل الكون كله يسبح ربه.

والعمل الذي يقوم به المخلوق يكون منبعثاً من التسخير إذا كان غير ممتلك للإرادة الذاتية.

ويكون منبعثاً من الاختيار إذا كان المخلوق مريداً يملك أن يفعل كما يملك أن يترك الفعل.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن تسبيح الكائنات كلّها لربها، حتى جاز أن نقول: إن التسبيح هو لغة الكون.

وقد جاء حديث القرآن الكريم عن تسبيح الكائنات مجملاً ومفصلاً.

فقد حدثتنا آيات عن تسبيح (ما) في السماوات والأرض لله.

وما: اسم موصول دال على غير العاقل:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الحديد:١]

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الحشر١/ الصف١].

وإذا جاءت صيغة التسبيح هنا بالماضي (سبّح) فقد جاءت في مواضع أخرى بصيغة المضارع الدال على الاستمرار:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر ٢٤].

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة: ١].

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [التغابن: ١].

وحدثتنا آيات أخرى عن تسبيح (مَنْ) في السماوات والأرض لله، ومَنْ: اسم موصول يدل على العاقل.

وجاء الحديث عن هؤلاء المسبحين العقلاء مع غيرهم من مخلوقات الله غير العاقلة بعد تسبيح الله تعالى لنفسه في قوله:

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٣-٤٤].

لقد جاء في قوله الله تعالى هذا تعميم وشمول لمسبحّي الله تعالى

فليست السماوات السبع والأرض ومن فيهن هم مسبّحوه فحسب

بل كل ما يقع تحت اسم (شيء) يسبحه

مع إشارة إلى أننا لا نفقه هذا التسبيح

وإذا كان الناس عامة لا يفقهون هذا التسبيح، فإنه:

لا يمتنع أن يدركه بعضهم كرامة أو معجزة

أو أن يدركه بعضهم بالكشف العلمي الذي يدرك به الناس قوانين الوجود.

ومن الصنف الأول: ما ورد في صحيح البخاري عن عبد الله بن سعود في حديث له: **"ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل"** (فتح الباري ٦/ ٦٧٩).

قال ابن حجر في شرح هذا الحديث:

"ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، أي في عهد رسول الله ﷺ غالباً، ووقع ذلك عند الإسماعيلي صريحاً، أخرجه عنه الحسن بن سفيان عن بندار عن أبي أحمد الزبيري في هذا الحديث: كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيح الطعام" (فتح الباري ٦/ ٦٨٥).

وأما الصنف الثاني: فيحتاج إلى رجل من أهل العلم والإيمان الذين لهم خبرة بأسرار هذا الكون وتناغمه، وما فيه من الآيات الباطنة الدالة على الله تعالى.

وكما جاء الحديث عن التسبيح عاماً؛ جاء مخصصاً بذكر بعض ما يسبح الله تعالى من المخلوقات:

فالرعد يسبح بحمد الله:

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣].

والطير يصلي لله تعالى ويسبحه:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النور: ٤١]

ومع الطير تسبح الجبال تجاوباً مع تسبيح عبد الله ورسوله داود عليه السلام:

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص ١٨-١٩]

وجاء في حديث لأبي هريرة رواه البخاري قال:

"سمعت رسول الله ﷺ يقول: قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه؛ إن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله"؟! (فتح الباري ٦/ ١٧٨)

وليس ذلك فحسب؛ بل التسبيح لغة الكون زماناً ومكاناً، ولنقرأ بتدبر قوله تعالى:

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الروم ١٧-١٨]

التسبيح تنزيه للرب

ورد التسبيح تنزيهاً لله تعالى في القرآن الكريم في صيغ متعددة، منها:

سبحان الله

سبحان ربك

سبحان رب السماوات والأرض

سبحانك

سبحانه

سبحانه وتعالى.

وقد أورد القرآن الكريم بعض ما قاله البشر من الجهل الذي لا يليق بجلال الله وعظمته، وجاء نفي ذلك وتنزيه الله تعالى عنه بالتسبيح.

ولنقف على بعض هذه المواضع:

زعم بعض المشركين أن بين الله تعالى وبعض عباده صلة ونسباً:

فقال بعضهم: الملائكة بنات الله، وأمهاتهن بنات سروات الجن (أي أكابرهم)

وقال بعضهم: إن الله تعالى وإبليس أخوان!! (ابن كثير ٤-٢٥).

فردّ القرآن الكريم على هذه المزاعم المفتراة، وجاء التسبيح عقب هذا الافتراء.

قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الصافات ١٥٨ – ١٦٠]

فالتسبيح هنا: تنزيه لله تعالى: وتعظيم لشأنه الذي لم يعرف القائلون المفترون قدره.

وقد جاء التسبيح هنا مضافاً إلى لفظ الجلالة.

وجاء في ختام سورة الصافات مضافا إلى (ربك):

﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٨٠]

قال ابن كثير: **"ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدّسها ويبرّئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون، وتنزّه وتقدّس عن قولهم علوّا كبيراً. ولهذا قال تبارك وتعالى: (سبحان ربك رب العزّة) أي ذي العزّة التي لا ترام (عمّا يصفون) أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين"** (ابن كثير ٤/ ٢٨).

لقد أضيف لفظ التسبيح (سبحان) إلى (ربك).

وفي هذه الإضافة تشريف للنبي ﷺ بإضافة (رب) إلى كاف الخطاب.

وجاء بعدها وصف (ربّ العزّة) فهو:

العزيز، وربّ العزّة

ومن كان الله ربّه كان عزيزا:

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٨]

وجاء لفظ التسبيح في سياق نفي الولد عن الله تعالى في إضافة ذات دلالة

قال الله تعالى:

﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ٨١ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢ ﴾ [الزخرف: ٨١ -٨٢].

إن في هذا القول الذي علّمه الله تعالى لنبيه ﷺ، من التحدي للمشركين مالا مثيل له

فهو عابد للرحمن في كل حال

مؤمن به حقّ الإيمان

ولذلك قال الله عزّ وجلّ لعبده محمد ﷺ:

"قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين"،

قال ابن كثير:

"أي لو فُرض هذا لعبدته على ذلك، لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فُرض هذا لكان هذا" (٤/ ١٤٦).

ولكن هذا الفرض غير وارد، ولذلك جاء بعد هذا التسليم لله، وإعلان عبادته والعبودية له:

تنزيه الله تعالى عما يقولون؛

بتذكيرهم بعظمته وقدرته

فهو رب السماوات ورب الأرض رب العرش العظيم

فأنى تكون له حاجة إلى ولد وهو الأحد الفرد الصمد؟

وكم نحتاج إلى تأمّل صيغة هذا التسبيح بترديده أكثر من مرة
ليمتلئ القلب من جلال عظمته، وعظيم سلطان
ونحن نتفكر في ربوبيته للسموات والأرض والعرش العظيم.
وقد جاءت صيغ أخرى للتسبيح بعد إيراد أقوال لا تليق بجلال الله تعالى مما قاله الجاهلون، فلنتأمل هذه الصيغ ومواضعها، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾[البقرة: ١١٦]
﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾[النساء: ١٧١]
﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنعام: ١٠٠]
﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة ٣١]
﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]
﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[النحل ٥٧]
﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾[الإسراء: ٤٣]
﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ [مريم: ٣٥]
﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[الأنبياء: ٢٦]
﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾[الزمر: ٤]
﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الطور: ٤٣]
في التسبيح: تنزيه للرب تعالى عما يقوله الجاهلون،

ولذلك كان عمل الملائكة العارفين بربهم، وذكر المؤمنين الذين يتدرجون في معارج المعرفة.

التسبيح تطهير للعبد

كما ورد التسبيح في القرآن الكريم تنزيهاً لله تبارك وتعالى،

فقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية في سياق يوحي بتنزيه الله من جانب،

وبتطهير العبد المردّد له من جانب آخر،

بعد اعترافه بما لا يليق أن يصدر عنه من ذنب قولي أو فعلي.

فعندما أخبر ربنا سبحانه وتعالى الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة وقالت الملائكة:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]

تلا ذلك عرض الله تعالى الأسماء على آدم والملائكة

فعجزت الملائكة عن التسمية

وقام بها آدم

في ذلك الموقف جاء تسبيح الملائكة:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٢].

ونجد التسبيح يجري على لسان المسيح عليه السلام بين يدي ربه حين يسأله عما افتراه الناس بعده من أمور:

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المائدة: ١١٦]

وأنى للمسيح عبد الله ورسوله أن يدعو الناس إلى فرية كبيرة، وذنب عظيم؟
ولذلك سبق جواب المسيح عليه السلام تسبيح
فيه تنزيه للرب عز وجل عن أن يكون له صاحبة أو ولد
وفيه تطهّر من هذا القول الذي نُسب إليه:
﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]
وعندما طلب موسى عليه السلام من ربه جلّ وعلا أن يراه
ثم كان ما كان من تجلٍّ لله على الجبل
والصعق الذي حلّ بموسى
وجدناه لمّا أفاق ورأى ما حلّ بالجبل وحلّ به يقدم التسبيح بين يدي كلامه:
﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].
فالتسبيح هنا جاء تنزيها لله تعالى مما خطر بباله من إمكان الرؤية في الدنيا
وتمهيداً للاعتراف بخطأ ذلك الطلب والتوبة عنه
فهو بالتسبيح قد نزّه ربه، وطهر نفسه.
ولما غضب يونس عليه السلام من قومه عندما لم يستجيبوا له، وترك ديارهم والتقمه الحوت:
﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ونلحظ كيف جاء في هذا الدعاء أو النداء إقرار بالتوحيد وتسبيح لله تعالى ثم إقرار بالذنب:

(إني كنت من الظالمين).

وعندما أشاع المنافقون حديث الإفك في حق السيدة عائشة، رضي الله عنها، جاءت التربية القرآنية لتعلم المسلمين كيف يتصرفون في مثل هذا الموقف:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: ١٦].

وقد قال أهل العلم: إن التسبيح هنا يراد به التعجب من عظم هذا الأمر وممّن تفوّه به

ولعل الفهم يتسع لأن تقول: إن من مقاصد التسبيح هنا التطهر به من قول ما لا ينبغي في أعراض المسلمين والمسلمات.

ومثل هذا الفهم أجده في موقف المعبودين من دون الله تعالى: الذين يسألهم يوم القيامة أمام عابديهم:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١٧-١٨]

فالتسبيح هنا تنزيه للرب تعالى عن أن يكون له شريك في العبادة

وتطهر وتبرّؤ من الذنب الذي نسبه إليهم العابدون لهم، الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله تعالى.

كما ورد في موضع آخر قول للملائكة يتبرأون ممّن زعموا أنهم عبدوهم:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠ -٤١]

وإذا كان في التسبيح تطهر مما لا ينبغي أن يصدر عن العبد من قول أو فعل؛ ففيه تطهر من:

الاحتقان النفسي

وضيق الصدر الذي يصيب العبد في الأزمات

نفهم ذلك من الأمر الرباني لرسوله ﷺ بالتسبيح في مواجهة موقف المشركين منه، وأثر هذا الموقف عليه:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨]



مواطن التسبيح وثمراته

التسبيح عمل الملائكة المقربين

والتسبيح لغة الكون كله:

فالجبال تسبّح، والطير تسبّح

وإن من شيء إلاّ يسبّح

كلّ ذلك بلسان الفطرة والهداية الربانية

وأما الإنسان فطلب منه التسبيح في أوقات وأحوال، لينال ثمرات ذلك في الدنيا والآخرة.

المطلوب من الإنسان أن يسبّح ليتناغم مع الكون من حوله، وليعظّم ربه، وليطهر نفسه.

شُرع التسبيح في بداية الصلاة: في دعاء الاستفتاح:

[سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك]

(صحيح ابن ماجه حديث رقم ٦٥٥)

وشرع التسبيح في الركوع: تعظيماً لله، وجاء بلفظ:

(سبحان ربي العظيم)

وشُرع التسبيح في السجود تذللاً لله، وجاء بلفظ:

(سبحان ربي الأعلى)

ومع تسبيح الرب الأعلى، والعبد في أدنى درجاته انخفاضاً، يكون في أعلى درجات القرب.

"أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء" (صحيح الجامع رقم ١١٧٥).

وشرُع التسبيح في ا لصلاة تنبيهاً للإمام إذا سها في صلاته.

وكأنّما هذا التسبيح:

تنزيه لله تعالى أن يكون السهو بين يديه في الصلاة،

وتطهير للعبد من الخلل الذي طرأ على صلاته، حين شرد ذهنه فنسي شيئاً أو زاد شيئاً.

وللتسبيح أجر عظيم:

فهو خفيف على اللسان، ثقيل في الميزان، بيَّن ذَلك الحديث النبوي الشريف:

"كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" (صحيح الجامع رقم ٤٥٧٢).

والتسبيح وسيلة اغتسال من الذنوب وإن عظمت

ففيه تعظيم للرب، وتطهر من الذنب

ولنسمع هذا الحديث العظيم:

"من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة غُفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر" (صحيح الجامع رقم ٦٤٣١).

والتسبيح هو العنصر الأول في دعاء يطهر من أدران مجلس كثُر فيه اللغو واختلط فيه الخير بالشر

فكان لا بد من كفّارة تمسح الشر، وتزيل آثار الغفلة

وهذا الحديث بروايتيه يبين أثر التسبيح:

"كفارة المجلس أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك" (صحيح الجامع رقم ٤٤٨٧).

"من جلس في مجلس فكثر في لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، اشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلاّ غُفر له ما كان في مجلسه ذلك" (صحيح الجامع رقم ٦١٩٢).

ويقدم الرسول ﷺ لأصحاب الأشغال الكثيرة (كبسولة) تسبيح مختصرة، موجزة الكلمات عظيمة الأجر:

عن ابن عباس عن جويرية (أم المؤمنين) رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بُكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة. فقال: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟

قالت: نعم. قال النبي ﷺ: **"لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشة، ومداد كلماته"** (صحيح الجامع رقم ٥١٣٩).

وإذا كان هذا شأن التسبيح في الدنيا، فإن له شأناً في الآخرة. يبين ذلك هذا الوصف لحال المؤمنين في الجنة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس: ٩-١٠].

إن المؤمنين في الجنة يلهمون التسبيح كما يُلهمون النَّفس كما يبين ذلك حديث نبوي شريف، فيصبح حالهم حال الملائكة المسبّحين.

ذلك بعض شأن التسبيح وما أعظمه من شأن لقوم يعلمون.

المؤمنون والتسبيح

المؤمنون ذاكرون لربهم في كل حال وحين.

والتسبيح باب من أبواب الذكر وصفهم الله تعالى به فيما وصفهم به من الأعمال التي يحبّها.

وإنما كان هذا الوصف تحريضاً لهم على التسبيح لما له من الأجر والنفع في الدنيا والآخرة.

أولا يكفيهم أنهم يتشبهون بالملائكة المكرمين الذين يسبحون بالليل والنهار لا يفترون؟

من الآيات التي وصفت المؤمنين بالتسبيح قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥)﴾ [السجدة: ١٥]

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩)﴾ [الفتح: ٨-٩]

ولم يقتصر أمر التسبيح على الوصف بل جاء به الأمر مع تحديد أوقات مختارة يحسن فيها التسبيح:

ومنها: العشيّ والإبكار:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)﴾ [آل عمران: ٤١]

ولئن كان هذا الأمر موجهاً إلى نبي الله زكريا فإنه باب خير يعمّ غيره.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]

وقد جاء في تفسير هذه الآية: أن المقصود بالتسبيح قبل طلوع الشمس: صلاة الفجر،

وقبل الغروب: صلاة العصر،

ومن آناء الليل أي: من ساعاته فتهجد،

وحمله بعضهم على المغرب والعشاء،

وأطراف النهار في مقابل آناء الليل.

هذا ما ذكره ابن كثير، وقد ذكر الزمخشري في الكشاف أن المراد بالتسبيح الصلاة أو على ظاهره

ولا يخفى أن في الصلاة تسبيحاً في استفتاحها وفي الركوع وفي السجود.

وتكرر ذكر طرفي النهار والعشي والإبكار في القرآن الكريم مرات:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥]

والتسبيح هنا على ظاهره أو على معنى صلاتي العصر والفجر.

ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩-٤٠]

وتكرر لدى المفسرين القول بأن الإشارة هنا إلى مواقيت الصلاة

وقيل: التسبيح على ظاهره.

ولعل مما يؤكد المعنى الثاني قوله تعالى: (وأدبار السجود) أي في أعقاب الصلوات.

ويتكرر الأمر بالتسبيح في آيات أخرى:

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٤٨-٤٩].

وجاء التسبيح مقترناً بالسجود ومبّيناً وقت أفضليته:

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٦]

وجاء التوجيه الرباني بالتسبيح مقروناً ببعض أسمائه:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤]

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]

كما جاء مقترناً بحال النصر والفتح، ومن ذلك في سورة النصر:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١-٣]

وإذا كان النصر والفتح حالين يستدعيان التسبيح شكراً لله تعالى وتعظيماً لمنته على رسوله ﷺ فإنَّ التسبيح مطلوب عند ركوب الدابة أو ما أشبهها، وفي هذا التسبيح شكر وتعظيم للنعمة.

قال ربنا سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

وكان من سنة الرسول ﷺ في سفره أنه:

إذا صعد في الطريق كبَّر

وإذا نزل سبّح

وفعل ذلك من كان معه من صحابته.

والتسبيح منجاة للعبد في المآزق

وقد بين ذلك رسول الله ﷺ في حديث يرويه سعد بن أبي وقاص:

"دعوة ذي النون إذْ دعا وهو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له بها"

(صحيح الجامع رقم ٣٣٨٣)

التسبيح ليس كلاماً يقال، أو ثواباً يُرصد في الآخرة

بل هو جزء من منهج الذكر الذي يرى به المؤمن عظمة ربه، ونعمه عليه ويتخلص به من الكرب والبلاء.



الحمد لله

"الحمد لله" أصل من أصول الذكر لله سبحانه وتعالى،

وثاني أذكار الباقيات الصالحات:

(سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر).

ومما ورد في مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني في معنى الحمد:

"الحمد لله تعالى: الثناء عليه بالفضيلة، وهو (أي الحمد) أخصُّ من المدح وأعمُّ من الشكر. فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير. فقد يمدح الإنسان بطول قامته، وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه. والحمد يكون في الثاني (أي فيما يكون بالاختيار). والشكر لا يقال إلا في مقابل نعمة. فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمداً".

ومن أسماء الله تعالى: "الحميد". وفُسّر هذا الاسم تفسيرين:

الحميد بمعنى المحمود على كل حال أو الحامد.

وقد ورد اسم الحميد في القرآن الكريم مقترناً بأسماء أخرى لله تعالى:

غني حميد – حميد مجيد – العزيز الحميد – حكيم حميد – الولي الحميد.

فالله تعالى محمود بغناه الذي يُفيض منه على عباده

ومحمود بمجده وسعة فضله وعطائه

ومحمود بعزّته وعلوه

ومحمود بحكمته

ومحمود لولايته المؤمنين ونصرته لهم.

وقد جاء الحمد في القرآن الكريم والسنة النبوية مطلقاً حيناً، ومقيداً حينا آخر، وأكثر ما جاء مقيداً لا مطلقاً.

فمن الحمد المطلق ورود صيغة: (الحمد لله) غير مرتبطة بأمر من الأمور، كصفة من صفات الله، أو نعمة حلّت بالعبد، أو نقمة دفعت عنه. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣]

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥]

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل ٥٩]

ولعل مما يلفت النظر أن الحمد جاء في سياق الأمر الرباني: قل.

ومن الحمد المطلق قولنا: "الحمد لله" ثلاثاً وثلاثين مرّة دُبر كل صلاة، استجابة للتوجيه النبوي

أو حمدنا الله تعالى في سياق أحب الكلام إليه: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وقد ورد الحمد مقيداً بإيراد اسم موصول متبوع بجملة صلة تبين أمراً يقتضي حمده، سبحانه، أو بذكر صفة من صفاته:

ومن الأمور التي سبقت بالحمد أمور ذات صلة بالكون،

ومنها: خلق الله سبحانه السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١]

ومنها ملكية السماوات والأرض:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١﴾ [سبأ: ١]

ومنها ربوبية السماوات والأرض والعالمين:

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦﴾ [الجاثية: ٣٦]

ولا يخفى ما في تقديم لفظ الجلالة على الحمد من اختصاص مطلق به دون غيره، في قوله (فلله الحمد).

لقد جاءت صيغ الحمد في هذه الآيات في سياق لَفْتِ النظر إلى آيات كونية تطلق اللسان بالحمد حين يراها العبد:

فهو يحمد الله تعالى أن خلق الكون وما فيه،

وإنه جعل الكون على ما هو عليه،

ويحمد الله حين تحلّ الظلمات،

ويحمد الله حين تشع الأنوار.

ويحمد الله وهو يرى مظاهر ربوبيته تتجلى على خلقه.

إنه أسلوب رباني حكيم: يجعل القلب حياً، واللسان رطباً بالحمد مع ألوان الذكر الأخرى التي يتقلب فيها العبد في أحواله كلّها.

ومن صيغ الحمد المتصلة بما سبق ما ورد في دعاء النبي ﷺ في التهجد:

"اللهم لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن.
ولك الحمد لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن.
ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن.
ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن.
ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق،
وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق،
ومحمد حق، والساعة حق." (رواه البخاري رقم ١١٢٠)

ورواه مسلم (حديث رقم ٧٦٩) باللفظ الآتي:

"اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض
ولك الحمد أنت قيّام السماوات والأرض
ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن،
أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق،
والجنة حق، والنار حق، والساعة حق.
اللهم لك أسلمت وبك آمنت
وعليك توكلت، وإليك أنبت
وبك خاصمت، وإليك حاكمت،
فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وأسررت وأعلنت،
أنت إلهي لا إله إلا أنت".

من مواطن الحمد

جاء الحمد في القرآن الكريم في صيغة الخبر؛ تعليماً للعباد أن يحمدوا الله تعالى إن رأوا ما تضمنته تلك الصيغ من المشاهد والمواقف.

وورد في صيغة الأمر للعباد مع لفت أنظارهم إلى ما ينبغي لله تعالى من الحمد على نعم وأحوال يمرّون بها.

وورد مسبوقاً بصيغة الماضي إشارة إلى مواقف يحمد العباد فيها ربهم على ما أنعم عليهم. وأشهر صيغ الحمد ما ورد في مطلع سورة الفاتحة. ولعلها أكثر صيغ الحمد تكراراً على الألسنة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

إنه حمد المربوبين للرب، يعلمهم الله تعالى إياه.

وإذا كانت الكائنات غير المكلّفة تعرف ربها معرفة تسخير، وتحمده وتسبّحه بالفطرة؛ فإن المطلوب من الإنسان أن يرى آثار تلك الربوبية ويحمد الله تعالى عليها.

ولو نظرنا في الصلاة لرأيناها تبدأ بالاستفتاح الذي يتضمن التسبيح والحمد:

"سبحانك اللهم وبحمدك".

ثم تأتي سورة الفاتحة: وأوّلها الحمد.

ثم نجد الحمد في الرفع من الركوع في صيغ متعددة، أشهرها:

"ربنا ولك الحمد"،

ومنها: ربنا لك الحمد لك السماوات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد

أهل الثناء والمجد

أحق ما قال العبد

وكلنا لك عبد

اللهم لا مانع لما أعطيت

ولا معطي لما منعت

ولا ينفع ذا الجد منك الجد (رواه مسلم رقم ٤٧٧)

وجاء الحمد مسبوقاً بصيغة الأمر: (قل) في مواضع يرى فيها الإنسان ما يستحق الحمد، أو تذكره الآيات بما ينبغي أن يقوله، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾[الإسراء: ١١١]

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [النمل: ٩٣]

ومن ذلك قوله تعالى موجهاً الخطاب إلى نوح عليه السلام:

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

[المؤمنون ٢٧]

وفي هذا الأمر درس لكل مؤمن ينجو من ظالم أن يحمد الله تعالى على هذه النعمة.

وجاء الأمر بالحمد في سياق الحديث عن إقرار المشركين بربوبية الله عز وجل مع جحدهم لألوهيته:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾[العنكبوت: ٦٣]

ومثل هذا الموقف قوله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾ [لقمان: ٢٥]

والحمد في مثل هذا الموقف يكون على الهداية إلى الحق والمؤمن يرى غيره مقيماً على ضلال الشرك.

وجاء الحمد على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو يرى نعمة الله عليه بالإنجاب بعد أن بلغ من العمر عتياً:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾ [إبراهيم: ٣٩]

وجاء الحمد من الله تعالى تعليماً لعباده أن يحمدوه على نعمة نزول القرآن الكريم على عبده محمد ﷺ، فهي نعمة من أجل النعم، فكل خير يعيش فيه المؤمن هو ثمرة من ثمرات نزول القرآن الكريم:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [الكهف: ١]

والحمد ممتد على ألسنة المؤمنين من الدنيا إلى الآخرة،

ومن مواطن الحمد في الآخره ما ذكره الله تعالى عن حمد المؤمنين ربهم على إدخالهم الجنة وصدق وعده لهم:

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر: ٣٥]

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر: ٧٤]

ويأتي الحمد في صيغة المبني للمجهول ليستغرق كلَّ صاحب لسان يمكن أن يحمد الله تعالى بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة، وتطوى صفحة الدنيا وما كان فيها ومن كان فيها:

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ [الزمر: ٧٥]

إن الحمد يقتضي رؤية نعمة، أو صرف نقمة

وذلك شأن المؤمنين في الدنيا والآخرة

ففي الدنيا دار البلاء:

يتقلب المؤمن بين آية ربانية تستحق رؤيتها الحمد

أو نعمة تنزل فينطلق اللسان بالحمد

أو بلاء يُدفع أو يرفع فيحمد الله

بل نجد العبد الصابر يحمد الله على كل حال، حتى يكون من الحامدين.

وقد بينت أحاديث النبي ﷺ بعض أحوال العبد مع الحمد.

فإذا بدأنا مع المؤمن من أول النهار:

وجدنا الحمد أول ما يتفوه به بعد أن يستيقظ من نومه

فيحمد الله تعالى على المعافاة في الجسد

وعودة الروح إليه بعد وفاتها بالنوم

وإذن الله تعالى له بذكره وعبادته:

"الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي، وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره"

(الأذكار / باب ما يقول إذا استيقظ من منامه)

"الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور"

(فتح الباري ١١/ ١١٧ حديث رقم ٦٣١٢)

وحين ننظر في أذكار الصباح نجد للحمد مكاناً واضحاً فيها

ومنها: الدعاء النبوي الذي يتأسى به المؤمنون:

"اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر" (رواه أبو داود النسائي)

"يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك"

(رواه أحمد وابن ماجه بإسناد حسن / المتجر الرابح / ص٤٤٨)

إنه حمد مبني على رؤية النعمة على العبد نفسه أو على الناس

وما أعظمها من نظرة لا تقتصر على الذات أو الدائرة الضيقة بل تمتد إلى الناس جميعا

وهو حمد يتجلى فيه شعور العبد بالتقصير تجاه ربه سبحانه، أن يوفيه حقه فيجعله كما يليق بعظمة الله وجلال سلطانه.

وإذا أقبل المؤمن على طعامه، وأكله باسم الله، فإنه يختم ذلك الطعام بالتعبير عن تقدير هذه النعمة التي يمر بها كثير من الناس من غير إحساس بعظمتها وفضلها، ولا يشعر الإنسان بذلك إلا حين يقرصه الجوع ولم يجد ما يملأ بطنه.

وقد أرشد النبي ﷺ إلى ما ينبغي من العبد من قول يدل على الشعور، بعد الطعام والشراب:

"إن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها" (صحيح الجامع رقم ١٨١٦).

وعلمنا بعض المحامد التي تقال بعد الطعام والشراب تلك المحامد التي تتجلى فيها رؤية شاملة للنعم التي يتقلب فيها العبد المؤمن:

كان النبي ﷺ إذا رفع مائدته قال:

"الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا" .

(فتح الباري / ٥٤٥٨).

وفي حديث آخر، قال: **"الحمد لله الذي كفانا وأروانا، غير مكفي ولا مكفور"**. وقال مرة: **"لك الحمد ربنا غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى، ربنا".** (فتح الباري / ٥٤٥٩).

ومن صيغ الحمد الجميلة ذات العلاقة بالطعام والشراب، وفيها تجلٍّ لرؤية عملية الهضم بعد الأكل ثم إخراج الفضلات:

"الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوّغه وجعل له مخرجاً" (رواه أبو داود والنسائي) (الأذكار / باب ما يقول إذا فرغ من الطعام)

بل إن العبد المؤمن حين يدخل الخلاء، وينتهي منه يحمد الله تعالى:

"غفرانك، الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني"،

(الأذكار، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء)

وتمتد رحلة الحمد مع العبد حتى نومه، فإذا وضع جنبه على الفراش واستعرض نعم الله عليه في يومه قال حامداً حمداً يُجمل كل ذلك:

"الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، ورزقنا وكفانا وآوانا، فكم ممّن لا كافي له ولا مؤوي" (رواه مسلم رقم ٢٧١٥)

وما بين الصحو والنوم تعرض للعبد أحوال يحمد الله تعالى عليها:

فإذا عطس حمد الله تعالى

وإذا لبس ثوبا جديداً قال حامداً معترفاً بفضل ربه:

"اللهم لك الحمد، أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صُنع له، وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما صنع له". (الأذكار / باب ما يقول إذا لبس ثوباً جديداً).

"الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة" (الأذكار / باب ما يقول إلا لبس ثوبه).

وإذا رأى مبتلى بمرض أو عاهة، تذكر ما هو فيه من عافية فحمد الله عليها وقال من غير أن يُسمعه:

"الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا"

(رواه الترمذي ٣٤٣١) (حديث غريب) ورواه ابن ماجه ٣٨٩٢، وعبد الرزاق ١٩٦٥٥)

وإذا سافر وعاد من السفر حمد الله تعالى على السلامة وقال:

"آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون" (رواه مسلم رقم ١٤٣٥).

وكم للحامدين من الأجر إذا كان مقروناً بالصبر.

فمن ابُتلي فحمد الله واسترجع بنى الله له في الجنة بيتاً اسمه بيت الحمد.

عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال:

"إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمد واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد" (الترمذي ١٠٢١ - حسن غريب ومسند أحمد ١٩٢٢٦)

وقد جعل النبي ﷺ الحمد دعاء في قوله:

"أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله" (صحيح الجامع رقم ١١٠٤)

فكأننا ونحن نحمده سبحانه نرفع إليه الإقرار بالنعمة وطلب العفو والعافية، ودوام النعم،ودفع النقم.

أفضل الذكر

لا إله إلا الله: أصل من أصول الذكر،

وكلمة من الكلمات التي يحبّها الله تعالى

وهي من الأذكار التي يكثر بها تحريك الألسنة وتنوير القلوب:

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وقد جاء الأمر بها في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]

وجاءت في القرآن الكريم في صيغ متعددة، منها قوله تعالى:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[البقرة: ١٦٣]

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨]

والمعنى العام لهذه الصيغ واحد يقوم على التوحيد مع إضافة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى.

ومما يلفت النظر في هذا الذكر: (لا إله إلا الله)أنه نصف الشهادتين اللتين هما مفتاح الإسلام ومفتاح الجنة:

"لا إله إلا الله محمد رسول الله"

وقد جاءت الشهادتان في صيغة نفي وإثبات:

نفي الألوهية عن غير الله تعالى

وإثبات الرسالة لمحمد ﷺ، ولم تأت الشهادة الأولى في صيغة إثبات كقوله تعالى:

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾

﴿ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ [الكهف: ٣٨]

وكأنما المطلوب من المسلم أن ينفي ألوهية غير الله ويثبت الألوهية لله وحده،

لأن الآلهة المزعومة لا تنفك تلوح له أمام عينيه

وتحاول اقتحام حمى التوحيد في قلبه فيقول: **"لا إله إلا الله"**.

و **"لا إله إلا الله"** : مفتاح الإسلام؛ فبها يُعصَم الدم والمال

قال رسول الله ﷺ:

"أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله". (متفق عليه).

وقال عليه الصلاة والسلام:

"أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقّه، وحسابه على الله" (صحيح الجامع رقم ١٣٧٣).

ولا إله إلا الله أعلى شعب الإيمان وأفضلها:

"الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" (صحيح الجامع رقم ٢٨٠٠).

ولا إله إلا الله ذكر المسلم بعد الصلاة:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد" (مسلم حديث رقم ٥٩٣)

وقول: **"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"** مرة واحدة، يُكتب لقائله أجر عتق رقبة وعشر حسنات، وتحط عنه عشر سيئات، ويُرفع عشر درجات وتكون له حرزاً من الشيطان.

ومن فعل ذلك عشراً أو مئة مرة زيد في حسناته وأجره. (انظر صحيح مسلم / رقم ٢٦٩١، ٢٦٩٣).

وقول: لا إله إلا الله بإخلاص وصدق سبب لشفاعة الرسول ﷺ: **"أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، مخلصاً من قلبه"** (صحيح الجامع رقم ٩٦٧).

ولا إله إلا الله، أغلى كلمة يختم بها الإنسان حياته، **"لقنوا أمواتكم لا إله إلا الله"** (صحيح الجامع ٥١٤٨).

ومن قالها ابتغاء وجه الله، وختم لَهُ بها، كان قولها سبباً في دخول الجنة:

"من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله، ختم له، بها دخل الجنة" رواه

وقولها بصدق وإخلاص سبب للنجاة من النار:

"وما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرّمه الله على النار" (رواه البخاري / رقم ١٣٨)

إنها كلمة غالية

ثقيلة في الميزان

تنير القلب بالإيمان

وتنير الحياة بطاعة الله

وتهدي إلى الصراط المستقيم

ولا يتمحّلنَّ أحد فيقول: أيكفي قولها من غير عمل؟

فمن قالها صادقا من قلبه، ابتغاء رضوان الله تعالى، لا بدّ أن يعمل

وإن أخطأ، أو ارتكب بعض الذنوب والمعاصي كانت طوق النجاة له،

فيعود من قريب ويتوب؛

لأنه يعلم أن له رباً يأخذ بالذنب ويعفو عن الذنب.

التكبير نشيد المسلم

التكبير رابع كلمة من الكلمات الطيبات

والباقيات الصالحات التي هي أحب الكلام إلى الله تعالى:

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

والتكبير نشيد المسلم الذي يرافقه في لحظات يومه، ولا يكلّ ولا يملّ من سماعه وترديده.

التكبير افتتاح الأذان وختامه،

يأتي الإنسان وهو في شغله أو نومه

أو أي حال من أحواله، فيقول له: الله أكبر الله أكبر،

فيصغر عنده كل شيء،

ويعظم عنده شأن ربه، تبارك وتعالى،

فيترك كل شيء، ويقبل على صلاته

وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله،

ويوقن أن الفلاح في لقاء الله.

والتكبير نشيد الإنسان في صلاته،

في كل حركة من حركاتها،

وكأنه في كل حركة يلوح له شاغل من الشواغل،

فيأتيه التكبير ليصغر شأن ذلك الشاغل، ويعظّم أمر ربه.

ولعل هذا ما يفسّر هذا التكرار للتكبير في الصلاة،

إنه إلحاح في التكبير لمواجهة إلحاح الشواغل القاطعة للعبد عند ربه.

ويأتي التكبير على هيئات مخصوصة في أحوال مخصوصة.

ففي صلاة الجنازة أربع تكبيرات وقوفاً من غير حركة ركوع أوسجود فهل في هذا التكبير تصغير لمصاب الموت الذي قد يكون سبباً للحزن أو ألوان المشاعر الأخرى التي تصيب بعض الناس في مواجهته؟

وفي صلاة العيد زيادة تكبيرات على المألوف في الصلوات الأخرى. فهل في هذا التكبير تصغير لما قد يتراءى للعبد من عظيم عمله في الصيام أو الحج أو الأضحية.

تكبير الله تعظيم له، وتصغير لما سواه. ففي جنب الله يصغر كل عظيم.

وفي لقاء العدو يكبّر المسلم ليهون في عينه ما يبدو له من قوة عدوه، وهيبة سلاحه، فيقدم على الجهاد وهو يقول:

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]

مستهيناً بالعدو قائلاً:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]

وعندما تشتعل النار

ويهول الإنسان لهيبها وحرّها ودخانها

يكبّر الله، فيكون التكبير عاملاً من عوامل إخمادها.

وعند ذبح ما أحل الله من الأنعام، وكلِّ ما يُذبح،

يسمي الإنسان باسم الله، ويكبر الله الذي أحل له الطيبات

تعظيماً لأمره، وإقراراً بشكره.

وإذا ركب الإنسان دابة، أو سيارة، أو كلّ ما يُركب

كان التكبير بعض الذكر الذي يقوله

ليلين له ذلك المركوب، ويسهل عليه التعامل معه.

وإذا سمع الإنسان أمراً يسرُه،

كبر الله وحمده.

وتكبير الله تصغير لما حصل له من النعمة حتى لا يغتر بها، فلا تكون النعمة سبباً للطغيان بدلاً من الشكر.

وفي الحج تكبير عند الطواف والمرور بالحجر الأسود.

وتكبير في يوم عرفة مع التهليل.

وتكبير عند رمي الحجرات.

وهل الحج إلا تعظيم لله وأمره، بترك الدنيا وزينتها

والتوجه إلى ديار الحج

وفعل ما أمر الله تعالى به من إحرام وتلبية وطواف، وسعي ووقوف بعرفة،

وذبح ما شرع الله تعالى أن يذبح؟

ويقرأ المسلم في كتاب ربه:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: ٣]

فيقول: الله أكبر.

ويكون هذا النداء: منهج نظر، ومنهج تفكير، ومنهج حياة.

ويقرأ في كتاب الله:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾ [الإسراء: ١١١]

فلا يعظم في عينه شيء من معبودات الناس التي جعلوها شركاء لله

ويظل التكبير حداءه ونشيده في حياته كلّها

يؤكده الأذان، وتزيده تأكيداً الصلاة.

دعاء الفاتحة فاتحة الدعاء

أمرنا الله تعالى في كتابه أن ندعوه فقال:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾

وعلمنا سبحانه كيف ندعوه بخير دعاء.

وأول ما يلقانا من دعاء القرآن: سورة الفاتحة التي هي فاتحة الكتاب الكريم.

وآخر ما يلقانا من القرآن الكريم الدعاء في المعوذتين

وبينهما دعوات كثيرة تجمع خير الدنيا والآخرة.

تبدأ سورة الفاتحة بأفضل الدعاء وهو الحمد، كما ورد في الحديث الشريف:

"أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله" (صحيح الجامع رقم ١١٠٤)

وإذا كان الدعاء طلباً للخير، فإن الحمد يتضمنه؛

لأن الحامد يرى نعمة تنزل، أو نقمة تدفع، فيحمد الله على ذلك، فيكون حمده سبباً للمزيد من الخير:

﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: ٧]

فكان الحمد بذلك دعاء.

وقد ورد في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول:

إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال: حمدني عبدي.

وإذا قال العبد: الرحمن الرحيم قال: أثنى علي عبدي

وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي. (صحيح الجامع رقم ٤٣٢٦)

والحمد والثناء والتمجيد لون من الذكر يتضمن الدعاء،

ويكتب الله تعالى لمن يشغله الذكر عن الدعاء أفضل ما يعطي السائلين.

وبعد البداية بالحمد لله رب العالمين، يأتي الدعاء الصريح:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

وإن يكن دعاءً في صيغة الخبر، فإنه طلب للعون من الله تعالى،

وهو من أغلى ما يُطلب

لأن العون إذا تحقق نال العبد كل خير

وإذا حرم العبد العون فأنى له الفلاح؟

ولذلك كان هذا الطلب مكرراً في كل مرة نقرأ فيها سورة الفاتحة.

وإذا كان العون أداة يستخدمها العبد ليرقى بها في معارج الخيرات

في كل أمر من أمور دينه ودنياه

في نفسه وأهله ومجتمعه

وفي عبادته وصلته بربه

إذا كان ذلك كذلك فإن الهداية غاية وجوده، ومطلبه الأول في هذا الوجود.

والهداية تعني أول ما تعني معرفة الرب سبحانه وتعالى.

ومن عرف ربه اتخذ إليه الوسيلة. ووسيلتنا إلى الله تعالى وبابنا إليه هو رسوله ﷺ.

ومن علامات الهداية الحب والاتباع:

حب الله تعالى واتباع أوامره

وحب الرسول محمد ﷺ والاهتداء بهديه والسير على سنته

وحب الصالحين والاجتماع بهم ليقوي العبد بإخوانه على عقبات الطريق، ومشاق السفر إلى الآخرة.

أو لم يقل كليم الله موسى عليه السلام:

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه: ٢٩ – ٣٤]

ولذلك جاءت صيغة طلب الهداية بضمير الجماعة لا ضمير الفرد:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾

ويتجلى الصراط وأنت تطلب الاهتداء إليه، والثبات عليه بعد أن تضع قدميك عليه

ولا تغريك السبل التي لها أبواب مفتّحة، وعليها ستور مرخاة تدعوك لتدخل وتنحرف عن الصراط.

يتجلى لك الصراط وأمامك حشد طويل ممتد منذ أول البشرية

في رأسه آدم عليه السلام، ومن تبعه من ذريته من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين

وفيهم رسول الله ﷺ

وصحبه الكرام، والسابقون الأولون من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان.

تطلب في الفاتحة العون والهداية

وتكرر ذلك في كل صلاة

وتأتيك من بعدُ أدعية القرآن الكريم لتندرج تحت هذين المطلبين: فما تدعو به إما أن يكون: وسيلة إلى الخير

أو يكون غاية يقودك إليها الاهتداء إلى الصراط المستقيم

فدعاء الفاتحة فاتحة الدعاء بكل خير.

هكذا ندعو بالقرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله: تنزيلاً وإحكاماً وتفصيلاً.

لكننا نجد فيه رواية كلام غير الله تعالى

وتعليماً من الله سبحانه لبعض عباده أن يقولوا ما يُحَبّ من الكلام.

نجد في القرآن الكريم كلام الملائكة الكرام

وكلام إبليس

وكلام آدم وابنيه

وكلام الأنبياء وما ردّ عليهم أقوامهم من أقوال

ونجد كلام الهدهد والنملة

والقرآن من بعد ومن قبل تنزيل من حكيم حميد.

هذا القرآن الكريم يعلمنا كيف ندعو الله تعالى

وما يعلمنا أن ندعو به هو خير الدعاء

لأن الذي أمرك أن تدعوه علمك، كرماً منه وفضلاً، ما تدعو به،

وكذلك علم نبيه ﷺ، فعلمنا كيف ندعو.

روى لنا القرآن الكريم مواقف لعباد الله الصالحين احتاجوا فيها إلى الدعاء

أوردها مجملة، ولها تفضيل فيما بعد

لندرك منزلة الدعاء في القرآن الكريم وما شغله من مساحة فيه.

لنتذكر أدعية الأنبياء الكرام بدءاً من آدم عليه السلام وزوجه عندما وقعا في الخطيئة.

ثم أدعية إبراهيم عليه السلام حين وضع زوجته وابنه بواد غير ذي زرع

ثم دعاءه وابنه اسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت

ثم الأدعية الأخرى لإبراهيم عليه السلام.

ولنتذكر دعاء موسى وهارون لنفسيهما وعلى فرعون وملئه.

ونجد في القرآن الكريم من مواقف الدعاء لأصناف من المؤمنين.

ومن ذلك دعاء أهل الكهف

ودعاء الصالحين من بني إسرائيل في مواجهة أعدائهم في إحدى المعارك

ودعاء السحرة الذين آمنوا وواجهوا فرعون.

ونجد دعاء المؤمنين من أهل الكتاب الذين أسلموا

ودعاء عباد الرحمن

ونجد دعاء الراسخين في العلم، والمتفكرين في آيات الله.

ومن هذه الأدعية أدعية يلقنهم الله تعالى إياها ليقولوها في مواقف معينة.

ونجد دعاء الملائكة لمن في الأرض، ودعاءهم الخاص للمؤمنين.

ولا نجد في القرآن الكريم الدعاء في الدنيا وحدها، بل نجد دعاء في الآخرة كذلك:

دعاء المؤمنين وقد دخلوا الجنة، ووجدوا ما وعدهم ربهم حقاً،

ودعاء الكافرين وهم في النار، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال.

إن هذه المساحة الكبيرة التي يشغلها الدعاء تدل على أهميته في حياة المسلم

وتجعل لسانه متحركاً به في كل حال من أحواله

وفق ما ورد في القرآن الكريم من أدعية وأحوال

ووفق ما سنراه من بعد من أدعية علمها الله تعالى نبيّه ﷺ، فدعا بها

وصارت أدعية مأثورة، وسنة مسنونة لنا ننال بها الخير.

دعاء في بدء الخلق

كان آدم عليه السلام أول البشر، بل هو أبو البشر، وذريته نسبت إليه،
فعرفت ببني آدم.
وقد اختزل آدم التجربة البشرية في حياته
واختزنها وورَّثها ذريته من بعده.
فقد خلقه الله تعالى خلقاً مكرّماً، وأسجد له الملائكة، وميّزه بالعلم
وأسكنه الجنة ليرى فيها مشاهد النعيم الذي سيؤول إليه المؤمنون من ذريته
بعد تجربة الحياة في الأرض
خاض آدم عليه السلام، تجربة الخطيئة والتوبة
فاستطاع الشيطان أن يغريه بالمعصية؛ فغوى
ولكن الله تعالى اجتباه وتاب عليه وهدى.
ونجد في مشهد الخطيئة والتوبة دعاء علمه الله تعالى إياه ليتوب عليه:
﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧]
ونجد هذه الكلمات (الدعوات) في سورة الأعراف يدعو بها آدم وزوجه:
﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾
[الأعراف ٢٣]
هذا الدعاء (دعاء علاجي) لأنه جاء لإصلاح خلل وقع، وهو المعصية

وتضمن اعترافاً بظلم النفس بمعصية الرب سبحانه، ونسيان العهد

وتضمن طلباً للمغفرة والرحمة، وخشية من الخسارة إن لم يستجب الله تعالى الدعاء.

وهذا دعاء يتعلمه الإنسان من أبويه الأوَّلين:

يعالج به ما قد يقع فيه من معصيته

ويرجو أن ينال به مانالاه من قبول الدعاء، ومغفرة الذنب.

وفي مواكبة هذا الموقف الذي جاء فيه هذا الدعاء: نجد دعاء للخصم

اللدود: إبليس، الذي أبى واستكبر

وتمرد على ربه، ولم يسجد لآدم

ولم يكتف بذلك، بل بدلاً من أن: يتوب وينيب

ويعترف بالذنب

ويطلب المغفرة والرحمة

ويخشى عاقبة الخسار

بدلاً من ذلك كله أصرّ على المعصية

وجلب لنفسه اللعنة الممتدة إلى يوم القيامة

وفي عقب ذلك دعا الله تعالى دعاء غريباً تضمن أمراً عجيباً:

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤-١٧]

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ٣٦-٤٠]

وجاء في موضع آخر من القرآن الكريم عن دعائه وطلبه وخطته:

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص: ٧٩-٨٣]

إنه موقف مناقض لموقف آدم عليه السلام، ودعاء مختلف عن دعائه.

لقد دعا ربه أن يُمدّ في عمره إلى يوم الدين،

لا ليكفر عن خطيئته بصالح العمل

ولا ليُحسن بعد ما أفسد وأساء

بل ليعيث في الأرض فساداً، ويكثّر حزب الفاسدين المفسدين الغاوين.

ولموقف إبليس هذا أتباع من الناس،

فكم من مسيء لم يرَ وجه الإساءة في ما عمل،

بل رأى نفسه وعزّتها،

فأبى واستكبر،

واستمر على ضلاله إلى نهاية حياته.

إنهما دعاءان كانا في بداية الخليقة:

دعاء جاء بعد ذنب؛ فيه القدوة للتائبين المستغفرين.

ودعاء بعد ذنب؛ فيه المثل للغاوين المفسدين.

وقد تتابع الدعاء من بعد على ألسنة أنبياء الله تعالى منذ نوح عليه السلام، وفي كل دعاء غاية ومضامين، لنا منها دروس، ولنا فيها قدوة.

دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام

إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الناس في الهداية

وخليل الله تبارك وتعالى،

نجد له أدعية متجددة تتردد على ألسنة من يتلون القرآن العظيم.

نجده وهو فتى يخوض معركة مع قومه ضد أصنامهم.

يدعو بدعاء حنون يشمل الدنيا والآخرة

ويمتد إلى الأجيال البشرية التالية:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٣ – ٨٩]

ما أروعها من مطلوبات تتجلى في هذا الدعاء:

الحكمة والإلحاق بالصالحين.

والذكر الطيب في الآخرين.

ودخول الجنة والمغفرة للأب الضال.

واجتناب الخزي يوم القيامة.

إنها دعوات إنسانية الأفق والرؤية.

وتزداد هذه الرؤية اتساعاً وشمولاً من بعد

وقد هاجر من أرضه

وكبرت سنّه

ورزق الذرية على كبر.

ها هو يسكن زوجته وولده الرضيع في وادٍ غير ذي زرع عن البيت المحرم

ويدعو دعاء ما تزال بركته مستمرة حتى يومنا هذا وإلى ما شاء الله تعالى:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٧]

إنه دعاء طلب فيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لمكة المكرمة وأهلها:

الأمن والرزق من الثمرات،

وهما أساس قيام المجتمعات، وهما الأمران اللذان منّ الله تعالى بهما على قريش:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [سورة قريش]

ويبدو والله أعلم أنه دعا بهذا الدعاء مرتين:

فعندما كان الوادي بغير سكان قال: اجعل هذا بلداً آمنا.

إي اجعل هذا الوادي الخالي من السكان بلداً آمنا مأهولا.

ولما أوى إليه الناس، وصار بلداً حول الكعبة، قال: (اجعل هذا البلد آمناً).

وتذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام

تلك الأصنام التي كان يصنعها أبوه وجعلها هو جذاذا

تذكر ذلك

فدعا أن يحمي الله سبحانه البيت الحرام من الأصنام

ودعا لنفسه ولذريته باجتناب عبادتها.

وتضمن الدعاء الإقرار لله تعالى بصفة العلم

فهو لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وتضمن حمد الله تعالى على نعمة الذرية في الكبر.

ثم جاء الدعاء بأن يجعله الله تعالى وذريته مقيمين للصلاة،

والدعاء لنفسه ولوالديه وللمؤمنين بالمغفرة يوم القيامة:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾

[إبراهيم ٣٨ – ٤١]

أرأيت كيف امتد الأفق أمام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، في الدعاء:

ليشمل الدنيا والآخرة،

والنفس والوالدين، والذرية والمؤمنين؟

وهل هذا كثير على خليل الله، وعلى إمام المؤمنين؟

ونجد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان بناء البيت الحرام يدعوان الله تعالى بدعاء يمضي في الأفق الرحيب نفسه:

لنفسهما، ولذريتهما أن تكون ذرية مسلمة.

ويدعوان أن يعلمهما الله تعالى المناسك اللائقة بالبيت الحرام وأن يتوب عليهما.

ويدعوان تلك الدعوة المباركة التي تحققت في شخصية رسولنا محمد ﷺ:

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾
[البقرة: ١٢٧ – ١٢٩]

إننا ونحن نستعرض دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

نستذكر بعض ملامح شخصيته

ونراها تتجلى في صفات هذا الدعاء

وملامح إبراهيم عليه الصلاة والسلام تجلوها لنا هذه الآيات الكريمة.

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]

دعاء نوح عليه السلام

إننا ونحن في حضرة نوح عليه السلام نجد أنفسنا مع داعية خبير ذي تجربة طويلة امتدت ألف سنة إلا خمسين عاماً

ولم يكن حصاد الرحلة الطويلة مع قومه كما كان يجب من استجابة لأمر الله تعالى.

وقد لخص نوح عليه السلام تجربته الدعوية في دعاء طويل بدأه بنداء الله تعالى باسمه الرب: (ربّ)،

ولم يتضمن هذا الدعاء كثيراً من (الطلب) بل كان أشبه بكشف حساب دعوي ختمه بدعاء على قومه المكذبين

دعاء يحمل كثيراً من الغيظ وسوء الظن فيهم وفي ذريتهم.

إن نوحاً عليه السلام، وهو يرفع صوته بالشكوى من قومه، ويقول: ربّ، ربّ، كأنما يريد أن يعذر نفسه في إعراض قومه عن الهدى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)﴾ [نوح ٥-١٤]

بعد هذا الاستطراد الطويل المفّصل الذي ذكر فيه وسائل الدعوة وأساليبها ومواقيتها، وما كان منه من ترغيب وترهيب لهم، وتذكير بنعم الله عليهم، بعد ذلك تأتي الشكوى من إعراضهم:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)﴾ [نوح: ٢١-٢٤]

إننا نكاد نلمس الغيظ الشديد الذي كان لديه،

فقد بذل كل هذا الجهد في دعوة قومه،

ثم هاهم يقابلونه بالمكْر الكُبّار، والإصرار على الضلال،

فتأتي دعوته متناسقة مع حالهم:

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾

ولا يشفي هذا الدعاء غيظ نوح عليه السلام، بل يأتي في هذه الصورة الساحقة الماحقة:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]

وبعد هذا الموقف الذي يسوده التوتر في الوصف والشرح والدعاء يلتفت نوح عليه السلام إلى نفسه وإلى والديه وإلى من آمن معه بطلب المغفرة

لكن لا ينسى أن يختم الدعاء بطلب إهلاك قومه الظالمين:

﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ٢٨]

وفي موضع آخر من القرآن الكريم نجد نوحاً عليه السلام في أزمة مع قومه الذين لم يكتفوا بالإعراض والمجادلة بالباطل بل:

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٦]

وبالأسلوب نفسه نجد عرض الحال على الله تعالى، والشكوى من القوم، والدعاء عليهم:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٧-١١٨]

ويخبرنا القرآن الكريم باستجابة الله تعالى لدعائه:

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٩ – ١٢٠]

ويقدم لنا القرآن الكريم نوحاً عليه السلام في صورة شبيهة بهذه في (سورة المؤمنون)، وقد كذبه قومه، فشكاهم إلى الله تعالى طالباً النصرة منه:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٦]

وتأتيه النصرة من الله تعالى: بإرشاده إلى صُنع الفلك، ثم بالتعليمات التي تناسب الموقف، ويمكن أن نسمّيه: دعاء النجاة من القوم الظالمين وهو دعاء يصلح لكل مؤمن يتعرض للفتنة ثم ينجيه الله تعالى:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٨-٢٩]

إن هذا الدعاء يتضمن تعليماً من الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام

فيه الحمد لله تعالى

وفيه طلب البركة في المنزل الذي يحل فيه

ونواجه نوحاً عليه السلام في مشهد ما بعد الطوفان

وقد دعا بالنجاة لابنه الذي رفض أن يركب معه في الفلك فكان من المغرقين.

إنها رحمة الأب تتجلى في رجاء النجاة للابن

ولكن الله تعالى يبين لنوح عليه السلام، الحق في الأمر فيرجع إليه ويستغفر ربه:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود ٤٥ -٤٧]

إن دعاء نوح يختلف في مضمونه عن دعاء إبراهيم

فلكل شخصيته وتجربته وأفقه الذي يتجلى له

وفي كل شخصية وموقف ودعاء درس وعبرة.

دعاء موسى عليه السلام

حياة موسى عليه السلام مليئة بالمواقف التي دعا فيها الله تعالى.

وحياته واضحة لنا في القرآن الكريم منذ كان رضيعاً إلى أن صار شابا يافعاً، إلى أن تقدمت به السن وخاص المواجهة مع فرعون وأخرج قومه من مصر وتوجه بهم إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، ونكصوا على أعقابهم.

أول مواقف الدعاء التي نجدها من موسى عليه السلام وهو شاب يستنجد به رجل من بني إسرائيل في خصومه وقعت بينهما.

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص: ١٥]

إنه موقف مفاجئ لم يكن في حسبانه

فقد وجد نفسه يقتل نفساً من غير عمد

ولا بد من التوبة، فاتجه إلى الله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص: ١٦-١٧]

وفي هذا الدعاء استغفار من الذنب غير المتعمد، وعهد بالاستقامة بعدم مناصرة المجرمين.

ويخرج موسى من مصر بعد أن جاءه التحذير: أن الملأ يأتمرون به

وقلبه معلق بالله

فهو الذي حماه رضيعاً

وألقى عليه المحبة في قلب امرأة فرعون

ونشّأه في قصر فرعون

ولذلك يتوجه إلى ربه سبحانه في كل أزمة يمر بها:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢١]

إنه دعاء بالنجاة من فرعون وملئه الذين يريدون به كيدا

وها هو يسير في الطريق وحيداً

لا أنيس معه

وليست له خبرة بالطريق،

فمن الذي يهديه إلى وجهة تكون له فيها نجاة؟

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢]

إنه دعاء بصيغة الخبر، وكأنه يقول: اللهم اهدني سواء السبيل

ويصل مدين بعد رحلة طويلة مريرة

فلا يجد من أهلها ترحابا

بل لا يجد لديهم مروءة

ولو كانت لديهم مروءة لما سقوا قبل الفتاتين

ولذلك كان منه السلوك السليم في مثل هذا الموقف تعليماً لهم:

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

[القصص: ٢٤]

واستجاب الله تعالى دعاءه

وكان من الرجل الصالح في مدين ذلك الموقف بتزويجه ابنته على أن يأجره ثماني حجج.

ونجد موسى عليه السلام، وقد قضى الأجل وسار بأهله.

ورأى النار، وجاءها طالباً للهدى أو لقبس من النار لأهله لعلهم يصطلون بها في تلك الليلة الباردة

ونزلت عليه الرسالة، ورأى من آيات ربه: العصا واليد،

وهو في هذا الموقف المهيب يكشف لربه سبحانه عن مخاوفه من أن يقتله فرعون وقومه بالذي قتله خطأ منهم،

ويطلب أن يعان على الرسالة بأخيه هارون

ونجد أنفسنا أمام دعاء مفصل مليء بالخشوع:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه: ٢٥-٢٦]

لقد طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أدوات مساعدة على الرسالة:

شرح الصدر.

وتيسير الأمر.

وحل عقدة اللسان.

وهارون الوزير المعين على أداء الرسالة.

وتسبيح الله وذكره.

وتمضي السنوات ونجد المعركة بين موسى وفرعون قد بلغت ذروتها

وطغى فرعون وبغى

ولم يستجب لداعي الهدى مع كل ما رآه من الآيات البينات

وهنا يلجأ موسى عليه السلام إلى ربه داعياً على فرعون وقومه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ

﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [يونس: ٨٨-٨٩]

إنه دعاء يذكرنا بدعاء نوح على قومه عندما بلغ الأمر مداه، ومضمونه:

الطمس على أموال فرعون وملئه.

والشدّ على قلوبهم لكيلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

لقد كانت دعوات موسى عليه السلام، في أزمات مرّ بها في علاقته مع فرعون وقومه، وفي علاقته ببني إسرائيل،

ومنها ما كان منهم عندما ذهب إلى ميقات ربه،

وترك خليفة من بعده على بني إسرائيل أخاه هارون عليه السلام،

فعصوه وعبدوا العجل،

وغضب عندما عاد ورأى حالهم،

وكان منه ما كان تجاه هارون،

ثم لجأ بعد ذلك إلى الله تعالى بالدعاء لنفسه ولأخيه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف: ١٥١]

ونلاحظ أن موسى عليه السلام استثنى قومه من هذا الدعاء، فقد كان في حالة غضب عليهم لعصيانهم أمره، وعبادة العجل.

ونستمع إلى دعاء موسى عليه السلام،

وقد ذهب مع سبعين رجلاً من قومه إلى ميقات ربه ليعلنوا التوبة عما كان منهم، فأخذتهم الرجفة:

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٥ -١٥٦]

ونجد آخر دعاء لموسى عليه السلام وقد عصاه قومه ورفضوا دخول الأرض المقدسة

فدعا الله تعالى أن يفرق بينه وبين قومه الفاسقين

ونجد في هذا الدعاء إحساساً بالحسرة ألاّ يجد على طريق الهداية إلا نفسه وأخاه هارون:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المائدة: ٢٥]

دعاء داود وسليمان عليهما السلام

داود وسليمان عليهما السلام، نبيان من أنبياء بني إسرائيل،

ورد ذكرهما معاً حينا،

ولكل منهما ذكر منفرد حيناً آخر.

إننا لا نواجه هذين النبيين الكريمين في مواقف معاناة مع قومهما

فقد كانا نبيين ملكين، ولهما سلطة في قومهما

ولذلك نجد الدعاء الوارد عنهما في القرآن الكريم أقرب إلى الشكر منه إلى الشكوى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النمل: ١٥]

دعاؤهما حمد لله على التفضيل،

وهو دعاء صادر عن إحساس بالنعمة،

ونجد داود عليه السلام في موقف فتنة لم يفصله القرآن الكريم،

وذلك عندما تسوّر عليه المحراب خصمان وسألاه أن يقضي بينهما

وكان في هذا الموقف رسالة له فهمها:

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص: ٢١ -٢٤]

إنه موقف استغفار من أمر لم يفصله القرآن الكريم، مع ركوع لله وإنابة إليه، وفيه بيان العاقبة بمغفرة الله تعالى له وبيان منزلته عند ربه سبحانه.

ونجد صورة لداود عليه السلام في القرآن وهو في حلقة ذكر يتجاوب معه فيها الجبال والطير:

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ: ١٠]

ونجد شبها بين سليمان وداود في بعض مواقف الدعاء.

فها هو سليمان في موقفين:

نجده حامداً شاكراً لله على نعمه،

وها هو وجنوده يأتون على وادي النمل،

وها هو يشكر الله تعالى على ما آتاه من قدرة على إدراك تخاطب النمل كما آتاه القدرة على معرفة منطق الطير.

وها هو القرآن الكريم يحدثنا عن هذا الموقف وصداه في نفس سليمان ثم دعائه ربه سبحانه:

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩ ﴾ [النمل: ١٩]

إنه موقف شكر في قضية فردية ذاتية هي من نعم الله تعالى عليه،

ومضمون الدعاء أن يمكنه الله تعالى من شكر نعمته عليه وعلى والديه،

وهو يعلم أن النعم تدوم بالشكر،

وأن يعمل عملاً صالحاً يرضاه الله تعالى ويتقبله.

وعمل الصالحات يقرب من الله تعالى زلفى،

وأن يدخله في عباد الله الصالحين برحمته،

وهي دعوة بحسن العاقبة.

إن أفق هذه الدعوة وإن كان خاصاً به وبوالديه، فإنه امتد زماناً ومكاناً ليشمل الدنيا والآخرة.

ونجد سليمان عليه السلام في موقف شكر آخر.

تتجلى فيه عليه نعم الله تعالى.

وذلك حين طلب ممن حوله من الملأ أن يحضروا له عرش بلقيس

وأحضره الذي عنده علم من الكتاب في طرفة عين.

وهنا نجد سليمان عليه السلام يقدّم بموقفه من هذا الحدث نموذجاً لمن آتاهم الله تعالى الملك والتمكين:

إنه نموذج التواضع لله تعالى، والشكر لنعمته:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]

إنه دعاء لله تعالى يتضمن:

الاعتراف بالنعمة، والشكر عليها،

وطلب دوامها،

وإن يكن دعاء غير صريح.

ونجد في مشهد الدعاء السليماني صوت ملكة سبأ وقد رأت من الآيات ما أزال الغشاوة عن عينيها:

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾
[النمل: ٤٤]

إنه دعاء بالمغفرة بالإقرار بظلم النفس،

وبإعلان الإسلام الذي يَجُبُّ ما قبله،

ويفتح صفحة البر والإحسان في علاقة العبد بربه،

وفي مقابل هذه المواقف التي تتجلى فيها النعم، وتقابل بالشكر، نجد سليمان عليه السلام في موقف محنة ينجلي عن نعمة كبرى:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣١-٤٠]

إن لدعاء داود وسليمان عليهما السلام ملامح خاصة تميزه عن دعاء الأنبياء السابقين لاختلاف تجربتهما عن تجاربهم، ولكنه يقدم للمؤمنين زادا في الدعاء في مواقف الشكر ومواقف الفتنة.



دعاء آل عمران

كرم الله تعالى آل عمران، وخصهم في القرآن الكريم بسورة باسمهم

كما جعل لمريم عليها السلام سورة باسمها، وهي حفيدة عمران.

وقد أورد لنا القرآن الكريم بعضاً من دعاء آل عمران:

دعاء امرأة عمران،

ودعاء زكريا،

ودعاء مريم،

ودعاء المسيح، عليهم السلام.

ولدعاء آل عمران خصوصية

فهو ليس دعاء على قوم كذبوا وعصوا،

وليس دعاء على طاغية متمرد على الله تعالى

بل هو:

دعاء أم لابنتها

ودعاء رجل لابنه

ودعاء رجل لنفسه.

وهي أدعية مختصرة لا تطويل فيها، ولكنها دروس في الدعاء لما يشبهها من المواقف.

أول ما يواجهنا من دعاء آل عمران:

موقف امرأة عمران، وقد نذرت جنينها لخدمة بيت الله تعالى،

وكان ظنها أن ما في بطنها ذكر،

وكم كانت مفاجأتها بل فجيعتها عندما كان وليدها أنثى!!

لكن ذلك لم يثنها عن نذرها، فبماذا دعت؟

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

[آل عمران ٣٦]

إنه درس في الدعاء لكل أب وأم ليعوذا الأبناء من شر ما يستعاذ منه:

الشيطان الآمر بالفحشاء، والموقع للعداوة والبغضاء بين الناس.

إنها دعوة أم لابنتها في جو إيماني شفيف.

وصلة بالله تعالى لا يحجبها حجاب

ولذلك جاء القبول عقب الدعاء:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

ولا نكاد نسمع صوت مريم بكلمة واحدة إلاّ قليلاً في المواقف التي قصها علينا القرآن الكريم من سيرتها الطيبة.

نسمع أمها تدعو لها.

ونسمع الملائكة تحييها.

ونسمع زكريا يخاطبها، ولكنها تظل بلا صوت إلا في جواب قصير عن سؤال زكريا عما رآه لديها في المحراب من الرزق:

﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ﴾ [آل عمران: ٣٧]

ونسمع صوتها في دعاء جاء في صيغة استعاذة في موقف الدهشة حين رأت الملك بشراً سوياً،

وهي وإياه في خلوة لم تتوقعها،

وقد جاءها بأمر لم يخطر لها على بال:

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨]

وهو دعاء التقية الحييّة التي تلجأ إلى ربها تعالى في المواقف الحرجة. ونجدها:

وقد اشتد بها الحمل.

وأخذها المخاض.

وخواطرها تستحضر ما بعد الولادة، وما ستمر به من محنة مع قومها تدعو:

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣]

إن دعاء مريم عليها السلام دعاء فردي في موقفين حرجين.

ونجد دعاء زكريا عليه السلام.

وهو دعاء رجل تقدم به العمر،

وتمنى أن يكون له وريث في الدعوة وإقامة الدين في بني إسرائيل.

وهي أمنية بعيدة لرجل طعن في السن، وله امرأة عاقر.

ولكن الله تعالى على كل شيء قدير.

وقد لهج لسان بدعاء ربه، عندما رأى حال مريم وما ظهر لها من كرامات، فشجعه ذلك على الدعاء:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨]

ونجد زكريا في موقف مفصل لهذا الدعاء في سورة مريم:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٤-٦]

لقد طلب الذرية الطيبة.

والولي الرضي.

طمعاً في أن يكون في مثل مريم صلاحاً.

وأن يتحقق فيه ما رجاه من الذرية.

ونجد أخيراً دعاء المسيح عليه السلام وهو دعاء للنفس بالسلام في الدنيا والآخرة:

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٣]

إن لدعاء آل عمران خصوصية أظنها لا تخفى على متأمل.

وفيها دروس لمن أراد القدوة في شؤون الأسرة.

مواقف وأدعية

حدثنا القرآن الكريم عن مواقف لأنبياء وصالحين.

كانت لهم فيها أدعية ناسبت تلك المواقف.

وهي أدعية يقدمها القرآن الكريم للمسلم ليدعو بها حين يقع في ظروف مشابهة.

ها هو يوسف في بيت عزيز مصر

ينظر إلى العزيز وامرأته نظرته إلى والديه

لقد بلغ أشدّه

وآتاه الله الحكمة والعلم

لكن يفاجأ من امرأة العزيز بأمر غريب

إنها لا تنظر إليه نظرتها إلى الولد

بل هي أنثى تراود فيه الذكورة

ويدخل في محنة رهيبة

محنة نفسية لم يكن يتوقعها

وزاد الأمر سوءاً ذلك الكذب من امرأة العزيز

ثم انتشار الخبر في المدينة

ثم اجتماع نسوة من علية القوم على مراودته

وأحسّ بثقل الواقع

وشدّة الفتنة،

فكان منه هذا الدعاء:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [٣٣-٣٤].

واستجاب الله تعالى دعاءه

فكان السجن مأمناً له من فتنة النساء.

ونجد يوسف عليه السلام في موقف دعاء آخر

فها هو قد تحققت رؤياه،

واجتمع شمله مع والديه

وانتهت معاناة الأسرة جميعها

نراه وقد رفع أبويه على العرش، وخرّوا له سجداً

وذكّر والديه بالرؤيا التي تحققت

وبالنعمة التي تمت عليه وعلى أسرته

بخروجه من السجن

ومجيء أهله من البدو

وزوال نزع الشيطان بينه وبين إخوته

إنها نفس صافية تعرف حق الله تعالى

وتتسامح مع من أساء إليها

فينطلق لسانه بهذا الدعاء الذي يقدمه نموذجاً لكل من أتم الله تعالى عليه نعمته:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ١٠١]

إنه دعاء قدم له بسرد النعم الربانية.

فما الذي دعا به من كان على خزائن الأرض عزيزاً في مصر؟

إنها الوفاة على الإسلام، والإلحاق بالصالحين.

هذا دعاء في موقف نعمة وشكر.

وهناك مواقف محنة رافقها دعاء:

فها هي امرأة فرعون التي انكشفت لها حقيقة زوجها.

بما ترى من أحواله البشرية مما لا يراه الناس عندما يخرج عليهم في زينته وجنده و أبّهته، نرى امرأة فرعون في لحظة صفاء تتوجه إلى ربها سبحانه بهذا الدعاء:

﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: ١١]

لقد بدأت في دعائها بالعاقبة:

بيت عند الله في الجنة.

وثنت بالدنيا:

النجاة من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين.

لقد كانت امرأة فرعون امرأة في قمة هرم الدنيا نعمة وترفاً،

ولكن ذلك لم يشكل غشاوة على قلبها وعينيها.

وكم من امرأة ورجل لا تغرهما الدنيا ببهرجها ومناصبها ومالها،

وتراه وتراها يخترقان ذلك كله ليريا بنور الإيمان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة.

ونجد في القرآن الكريم دعاء السحرة الذين آمنوا بعد أن انكشفت له الحقيقة:

حقيقة سحرهم،

وحقيقة فرعون،

وحقيقة نبوة موسى عليه السلام.

وقامت عليهم الحجة بأن موسى:

نبي الله تعالى

لا كبيرهم الذي علمهم السحر، كما زعم فرعون.

وواجهوا فرعون بالحقيقة التي انشكفت لهم.

وواجههم بالوعيد الشديد.

وأعلنوا إيمانهم وأصروا عليه.

وختموا الموقف بهذا الدعاء الذي يناسب موقف المواجهة.

ويستعينون به على الصبر على البلاء:

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: ١٢٦]

إنها المواجهة الرهيبة

التي تحتاج إلى الصبر الذي يفرغ عليهم إفراغاً

ليثبتوا على الحق ويموتوا مسلمين.

ونجد مثل هذا الدعاء أو قريباً منه مع زيادة

ينطلق بها لسان الجند الذين كانوا مع طالوت

وواجهوا جالوت وجنوده

وهم فئة قليلة مؤمنة

تواجه كثرة كافرة:

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: ٢٥٠]

وهو دعاء يصلح لكل مواجهة بين المؤمنين والكافرين في ميدان المعركة:

بإفراغ الصبر.

وتثبيت الأقدام.

والنصر على الكافرين.

ونجد دعاء لبني إسرائيل في لحظة حرجة.

وقد اتخذوا العجل ثم انكشف لهم سوء عملهم.

فانطلق لسانهم قائلين:

﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

[الأعراف: ١٤٩]

هذه بعض المواقف التاريخية التي صحبها الدعاء.

وفي إيرادها في القرآن الكريم تعليم للمؤمنين أدعية تناسب مواقف شتى

قد يمرون بها كما مرّ بها الأولون.

ولا يخفى أن خير دعاء للإنسان:

ما ورد في القرآن الكريم.

أو صح في السنة النبوية.

أو ما يوافق حاجة العبد في حال الاضطرار.

دعاء المؤمنين في القرآن الكريم

علم القرآن الكريم المسلمين كل خير، وهداهم سبيل الرشاد.

ومما علمهم إياه دعوات جاءت على ألسنة المؤمنين

في مواقف متعددة

وسياقات مختلفة، ليكون دعاء القرآن الكريم خير ما يدعو به مؤمن

إلى جانب ما علمنا إياه رسولنا محمد ﷺ.

وهذه الدعوات غير تلك التي ارتبطت بمواقف تاريخية مما ورد من قبل.

جاء في سياق البيان لأصناف الناس في الدنيا وما لهم فيه من المطالب والمآرب

ذكر صنفين:

صنف دنيوي الرؤية والهم،

وصنف يرى الدنيا ويرى معها الآخرة. وشتان ما بينهما.

في سياق الحديث عن هذين الصنفين يأتي بيان دعاء كل منهما:

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠]

فالدنيا وما فيها مطلب هذا الصنف الذي لا يؤمن بيوم الحساب.

ولكن للمؤمنين دعاء آخر:

﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ ﴾ [البقرة: ٢٠١]

إنه دعاء يشمل خير ما في الدنيا وخير ما في الآخرة.

وفيه طلب الوقاية من شر ما يستعاذ منه

وهو: النار.

وفي موقف آخر نجد القرآن الكريم يقدم الموقف المطلوب من المؤمنين باستكمال أركان الإيمان والطاعة والاستغفار:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

لقد جاء الدعاء استغفارا (غفرانك ربنا) في ختام الحديث عن أركان الإيمان

ثم بعد ذلك يعلم القرآن الكريم المؤمنين دعاء:

يناسب الضعف البشري الموجود في الإنسان الذي يوقعه في المعصية فيستغفر،

وهذا الدعاء هو:

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

[البقرة: ٢٨٦]

إنه دعاء طويل متعدد الجوانب والمطالب:

فالنسيان والخطأ من طبيعة الإنسان،

فيأتي هذا الدعاء ليعلم المؤمنين أن يطلبوا من ربهم سبحانه أن يتجاوز عن خطئهم ونسيانهم.

ومن ضعف الإنسان أنه لا يستطيع حمل التكاليف والأعباء الشرعية إذا كانت فوق طاقته، وقد كان في التشريعات السابقة يشدّد على الأمم السابقة.

فجاء القرآن الكريم يعلم المؤمنين أن يتقربوا إلى الله تعالى بدعائه

ألا يكلفهم ما كلف الأمم السابقة من الأعباء

وألا يحمّلهم ما لا يطيقون

مما يثقل عليهم فعله من التكاليف.

ويضاف إلى ذلك إحساس المؤمنين بالضعف والتقصير

مما يتطلب سؤال ربهم العفو والمغفرة والرحمة.

وفي الدعاء:

يظهر ضعف الداعي

وقوة المدعو سبحانه.

فهو الولي وهو القادر على نصرة عباده المؤمنين.

ونجد في سورة آل عمران أدعية يعلمها الله تعالى عبادة المؤمنين

في بداية السورة وفي ختامها.

فقد تحدثت السورة في بدايتها عن الراسخين في العلم

أولي الألباب الذين يؤمنون بما أنزل الله تعالى

من محكم القرآن الكريم ومتشابهه

وذكرت أدعيتهم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

[آل عمران: ٧-٩]

ما الذي علم القرآن الكريم أولي الألباب – الراسخين في العلم أن يدعوا به؟

إنها الوقاية من زيغ القلوب بعد الهداية

والثبات على الإيمان

وطلب الرحمة من لدن ربهم

وإعلان الإيمان بيوم القيامة.

ويأتي في السورة نفسها موقف آخر للدعاء

بعد الحديث عن العباد الصالحين الذين يستحقون الجنة

وما هم فيه من الصفات المرضية عند ربهم من:

صبر وصدق

وقنوت وإنفاق

واستغفار في الأسحار.

فماذا كان دعاؤهم؟

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾

عناصر هذا الدعاء:

إعلان الإيمان

وطلب الغفران

وسؤال الوقاية من النار.

وفي ختام سورة آل عمران دعاء مطول لأولي الألباب

الذين يتفكرون في خلق السماوت والأرض

ويذكرون الله تعالى في كل أحوالهم

فتتجلى لهم آيات الله تعالى في نور الإيمان والذكر

فيدعون دعاء فيه إقرار بحكمة الخالق العظيم:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩١ – ١٩٢]

إنه دعاء دائم متكرر في أدعية المؤمنين: الاستعاذة من النار.

وفي الدعاء تقرب إلى الله تعالى

وتذلل له ببيان حالهم مع الإيمان:

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٣]

وفي هذا الدعاء يتكرر طلب يرد في دعاء المؤمنين:

غفران الذنوب والسيئات.

والوفاة مع الأبرار.

ولا يخفى أن الأبرار في نعيم.

فمن كان معهم كان من الناجين.

ويمضي الدعاء بين عرض حال وطلب وسؤال:

فهم آمنوا بما أنزل الله تعالى على رسوله،

وقد جاء الرسل إلى الناس بوعود للمؤمنين منهم.

آمن بها الأبرار الداعون، فهم يسألون الله تعالى أن ينالوا ذلك الخير الموعود على ألسنة الرسل الكرام:

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

[آل عمران: ١٩٤]

ومع طلب نيل الوعود دعاء

بالوقاية من خزي يوم القيامة بالحساب المذل والعرض المهين.

وفي الدعاء ثقة بالله تعالى الذي لا يخلف الميعاد.

وقد أخبر الله تعالى في ختام هذا الدعاء أنه استجاب لهؤلاء الداعين، وأناهم ما سألوه:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥]

أما بعد،،،

فقد كانت هذه الرحلة مع الأذكار والأدعية، وأرجو أن يكون فيها ما يحيي القلوب، وينعش المشاعر، ويعيد إلى الذكر والدعاء حيويته ليتحقق تأثيره. ولا أزعم أنني استوعبت في هذه الرحلة أدعية القرآن الكريم أو أدعية السنة الشريفة، فذلك ما لم يكن من هدفي.

كان هدفي تقديم نوع من فقه الدعاء يتجاوز بالقارئ ظواهر الكلمات ويغوص إلى بعض معانيها.

فإن كان في هذا الكتاب نفع وخير، فهو بفضل من الله ونعمة وبركة، وإن يكن فيه تقصير فمن نفسي وقصور فهمي، وضيق علمي.

والله تعالى المسؤول أن يكتب الأجر، ويتجاوز عن الخطأ والنسيان والقصور.

محتويات الكتاب

الموضوع **الرقم**